**مقياس الفرد و الثقافة**

**في تحديد المفاهيم المتعلقة بالفرد والثقافة**

**عناصر الدرس:**

**- تمهيد**

**1- في مفهوم الفرد والفردانية: لغة واصطلاحا + مفهوم الإنسان والإنسانية**

**الأنا، الأنانية، المركزية الأوروبية**

**2- في مفهوم الطبيعة والثقافة: لغة واصطلاحًا**

**2/1- في مفهوم الطبيعة**

**أ- الطبيعة الجغرافية**

**ب- الطبيعة البيولوجية**

**ج- الطبيعة العاقلة**

**2/2- الغريزة وخصائصها**

**2/3- الفرق بين الغريزة والعقل**

**الفرد و الثقافة**

**تابع : في تحديد المفاهيم المتعلقة بمفهومي الفرد والثقافة**

**1- الفرد:** مقابل للزوج وهو ما يتناول شيئا واحدا دون غيره

والفرد من الناس هو الرجل المنقطع النظير الذي لا مثيل له في صفاته **هذا يعني أن الفرد هو المتميز عن الآخر في صفاته.**

**ويختلف مفهوم الفرد باختلاف العلوم التي تتناوله.**

**أ- في البيولوجيا (علم الحياة):**

كل كائن حيّ تتعاون أجزاؤه تعاونًا دائمًا ووثيقا على حفظ بقائه، بحيث إذا اختل هذا التعاون تعطلت وظائف ذلك الكائن الحيّ أو تبدّلت تبدّلا تامًا.

فالكائن الحي عضوية تتكامل أجزاؤه من أجل تقديم غاية واحدة هي بقاء هذا الكائن وحفظ توازنه. وفي حالة تعطل هذه الوظائف يعني الموت والتوقف عن الحياة.

**ب- الفرد في علم النفس:** هو الشخص المتميز عن الآخرين بهويته ووحدته، أو هو، ما هو ذو صفات خاصة مخالفة عن الصفات المشتركة بينه وبين أبناء جنسه. والشخص من الشخصية وتعني القناع المستطاع، وهو التميز والتفرد في الصفات عن باقي أفراد جنسه الذين يشبهونه في بعض الصفات.

**ج- الفرد في علم الاجتماع:**

هو وحدة من الوحدات التي يتألف منها المجتمع مثل المواطن في الدولة، النحلة في الخلية، اللاعب في الفريق[[1]](#footnote-2). فهذه كلها أحاد حقيقية يتألف منها الجسم الاجتماعي.

**- إذا رجعنا إلى اللغة الفرنسية:**

فكلمة الفرد: **Individu**: جاءت من الكلمة اللاتينية **Individu** والتي تعني اللامنقسم **indivisible** بمعنى المشكل لوحدة غير منقسمة.

**د- الفرد وعلاقته بالهوية:**

يعتبر الفرد مفهوما من المفاهيم الأساسية والجوهرية في فهم معنى الهوية.

فكلمة فرد بالفرنسية **individu** ومعناها لا يمكن تجزئته أو تقسيمه.

أما من ناحية التعريف النفسي والاجتماعي.

"فإنه كائن إنساني باعتباره عضو في جماعة ما أو مجتمع ما"

- إن الكلام عن الفرد (الهوية الفردية) يحيلنا بالضرورة إلى الكلام عن الجماعة (الهوية الاجتماعية) ولذلك فالهوية علماء الاجتماع هي تعبير عن الانتماء بكل أشكال الانتماء إلى جماعة، منظمة، طبقة اجتماعية.

ومن هنا تتحدّد الهوية الاجتماعية على أنها: "ليست إلا النتيجة النهائية والمؤقتة الفردية والجماعية الذاتية والموضوعية، البيوغرافية والبنيوية" لمختلف صيرورات التنشئة الاجتماعية التي تبني الأفراد والمؤسسات، هذا يعني أن الهوية تتشكل عبر مستويات متعددة من الانتماء إلى العرق والدين والقبيلة والدولة والأمة.

غير أن الكلام عن الهوية الفردية تبقى مرتبطة بفكرة الحداثة، لأن الأنا الفردية لم يكن لها وجود قبل ذلاك.

- تبين الدراسات التي قام بها الكثير من علماء السوسيولوجيا و الأنثروبولوجيا والمؤرخين أن هناك:

"أنا اجتماعية أولية مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة واحدة متماسكة"

من هنا ابرز أسبقية الأنا الاجتماعية عن الأنا الفردي في الوجود. ففي إطار المجتمعات الأولوية لا وجود الأنا الفردية، فالأنا هو الأنا الاجتماعي فحسب، فهو يسهم في المشاركة الجمعية وخاصة فيما يتعلق بالخرافات والطقوس والعادات، إذ لا وجود للإنسان المحدد إلا من خلال انتمائه الجمعي"

وظاهرة الحرب أكبر مثال على تجسيد هذا الانتماء.

"ففي حالة الحرب وتحت تأثير الخطر المضاعف يتم تحشيد النزعة الفردية لصالح الأنا الجمعية، والمشاعر والأحاسيس التي ترتبط بالجماعة، فالخوف هو خوف الجماعة والتضحية أجل الجماعة"هذا ما يؤكده كلود ديبار C. Dubar عندما يقول:

"لا نستطيع أن نجد في فجر البشرية إلا أقواما وقبائل رجلا ثم قبائل ومجموعات إثنية تسيطر فيها الـ "نحن" بصورة كاملة على هويات الـ "أنا" في أسوأ الأحوال وفق أحد المفكرين (إلياس) لا نستطيع أن نجد فيها هويات "الأنا" إلا متجمدة بالكامل في هوية هؤلاء ال "نحن" التي تعتبر شمولية"

لذلك لا بمكن أن توجد للفرد هوية، لا يمكن أن يجد له موقعا ضمنها إلا من خلال ما تمليه عليه الرغبة الجماعية، فلا وجود للأنا خارج الأنا الاجتماعية ومن هنا تتحول الهوية الجماعية إلى مقياس.

لأنني لا أعرف أبدا من أنا إلا من خلال نظرة الآخر، وتصبح الهوية بذلك "مجموعة المعايير التي تسمح بتحديد مكانه في المجتمع، وبذلك تكون الهوية الاجتماعية هوية ممنوحة"

من خلال هذا الكلام يمكن القول أنه عندما يتم تحديد الهوية الاجتماعية لفرد ما يعني ترتيبه في المجتمع وإعطائه المكانة والدور الذي يستحقه من خلال ما يتم تحديده من تصنيفات للفرد داخلا الجماعة.

ومن هنا يتجسد التكامل بين الفردي والجماعي لأن الهوية في نهاية المطاف هي عبارة عن تواصل مستمر يتم من خلالها انصهار الفردي في الجماعي عن طريق مت يعرف بالتنشئة الاجتماعية.

ثم إن الجماعي بدوره قد ينصهر في الفردي عندما يكون فاعلا ومعبرا عن مكانته الحقيقية في الجماعة. بذلك تكون الهوية الفردية هي هوية اجتماعية في أصلها، فهي تمثل الآخر منصهرا فينا. هذا

الآخر الذي من خلاله نبني وننشئ فكرة على هويتنا.

- وعند الكلام عن الآخر يتوجب علينا الإحالة إلى مفهوم الأنا، لأن الآخر يقابله الآخر.

- الأنا: إن الأنا في العربية منشق من اللاتينية ego ومن الفرنسية je

أما في الاصطلاح: هو بناء تفسير يتكون من صفتين أساسيتين هما الشعور، إنه موضوع وذات الأبحاث الليبيدو، فهو فاعل داخل مجموعة من الوظائف منها الواقع والنزوات والأهواء والدفاع والعلاقات والتكيف.

إن التعريف الاصطلاحي يجعل من الأنا عملية بناء، وهذه الأخيرة لا يتم إلا عبر مراحل أساها فاعلية الأنا من خلال الأدوار التي يقوم بها كعملتي التكيف والدفاع وغيرها من الآليات الأخرى.

- أما مفهوم الأخر

لا يتحدد مفهوم الأنا إلا على أساس الآخر المختلف عنّا، لأن هذا الآخر مهما كان الاختلاف معه في العديد من القيم.

ثم أن هذا الآخر قد يتحول إلى عدو عندما يحاول هذا الأخير سحق الأنا ويعمل على جعل الآخر يتماهى مع الذات.

- الآخر أو الغير: Altérité بالفرنسية مشتقة من اللاتينية Alter ومنها الآخر.

ففي الاصطلاح: هي خاصية ما هو غير، أي ما يقابل الأنا، أما من الناحية الفلسفية هو تعبير عن التنوع والاختلاف وعن كل ما هو مرغوب عن الذات أو الأنا وكل ما منفصل منها.

**و) الفردانية: Individualisme**

هي مصطلح تولد عن نظرية الديمقراطية:

والفردانية هي نظرية تجعل من الفرد يطور بخدمة مصالحه وتضحياته بعيدًا عن المجتمع.

- إن ما يميز المجتمع الحداثي عن المجتمع التقليدي ميزة الحرية والفردانية.

فالحرية والمساواة ومن ثم التراتبية، خصائص أساسية في هذا التفرد، وهي وراء كل حركة نحو التطور والتغيير والتقدم في مختلف الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والتكنولوجية.

فغذا كانت المجتمعات التقليدية أساس قياسها الدين، فإن المجتمع الحداثي أهم ركيزة يتأسس عليها هي الفردانية التي أصبحت العمود الأساسي الذي يدور حوله كل نشاط يخص هذا المجتمع.

فالاهتمام بالفرد وبحقوقه ممثلة في الحرية على اختلاف جوانبها السياسية والاقتصادية والدينية والأخلاقية. هي وراء كل نشاط أو فعل يهدف إليه الإنسان في المجتمع الحديث.

وعلى هذا الأساس عندما نحاول تقديم تعريفا لمصطلح الفردانية فإن أول ما يواجهننا هو:

**التحديد اللغوي لكلمة فرد:**

فكلمة فرد: Individu كشف من الكلمة اللاتينية وتعني الجزء الذي لا يتجزأ .

فالفرد في المنطق يقال على شخص واحد لا ينقسم إلى عدة أنواع أو النوع الذي يشمل عددا غير معين من الأفراد، فبقراط مثلا فرد، لأنه يدل على موجود واحد لا ينقسم وهو موضوع معين تحمل عليه عدة صفات.

- والفرد يمثل معنى جزئي فهو: "بخلاف الجنس أو النوع الذي هو كلي، يقال على عدد غير محدود من الأفراد"وإذا صح القول أمكننا القول: أن الفرد لفظ جزئي يقابله في المصطلح المنطقي الجنس والنوع وهما من الألفاظ الكلية ويدخلان في المنطق تحت ما يعرف بالكليات الخمسة وهي (الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام)

- أما في علم الاجتماع: فإن مفهوم الفردانية مختلف عن المعنى المنطقي، فهو لا يقصد به الذاتية التي تنتج الأنانية، وإنما تكبير إلى خاصية تتميز بها المجتمعات الصناعية الحديثة "ففي المجتمعات يعتبر الفرد الوحدة المرجعية الأساسية، سواء بالنسبة إليه بالذات أو بالنسبة للمجتمع. إن الفرد هو الذي يقرر مهمته ويختار قرينه وهو يتحمل بحرية تامة مسؤولية رائه"

خلافا ما كان عليه الفرد في المجامعات التقليدية وبهذا يمكن القول أن الفردية هي ما يقابل الجمعية، فالأولى تمثل المجتمعات الحداثية أما الثانية تمثل المجتمعات التقليدية.

ثم إن الفردية بهذا المعنى لا تعني مفهوم التفرد والانفراد أو الاعتزال والتضاد مع كل ما هو اجتماعي وإنما يقصد بها جملة من الخصائص يميزه عن الآخرين ولكن في إطار التعاون والتكامل الاجتماعي.

وتأسيسا على هذا يمكن القول أن الفردية بهذا المعنى نشير إلى مصطلح الفردانية التي تجسد واقع اجتماعي وثقافي يستطيع فيه الناس بوصفهم أفرادًا اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم وممارسة عقائدهم كما ترمز إلى مجتمع فيه النظام الاجتماعي والقضائي وحماية حقوق الناس بوصفهم أفرادا غير مكرهين على التضحية أو التنازل عن شيء يعتقدون به"

ومن هنا جاء هذا التعريف مشابها للتعريف الذي جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا، حيث عرف الفردانية Individualisme على أنها "مذهب من يرى أن الفرد هو أساس كل حقيقة وجودية، أو مذهب من يفسر الظواهر الاجتماعية والتاريخية بالفاعلية الفردية" بمعنى أن كل شيء يعود إلى الفرد خلاف لما كان يراه عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم والذي يرد فيه كل شيء للمجتمع بحيث تذوب الفردية في الجماعية، فالفردانية هي من جهة تؤكد على كل ما هو أصيل ولكن بشكل متميز ومتفرد خلاف التماثل والتطابق الذي يعدم الهوية.

- ولكن هذا لا يعني كذلك أن الفردي بضاد الجماعي بل يكمله ويتممه ولهذا نجد دوركايم يؤكد على هذا التكامل حينما يقول:

"إن في كل منا كائنان: كائن فردي يعبر عن منظومة الميول إلى الفردانية التي تخص الفرد دون أن يشترك فيها مع الجماعة، وكائن اجتماعي يمثل جميع الحالات والاتجاهات والقيم التي يشترك فيها الفرد مع الجماعة"

- ومن المفاهيم القريبة كذلك: مفهوم الأنانية: Egoïsme: وهي الأثرة والادعاء أو هي إضافة الأشياء كلّها إلى النفس... والأنانية في علم النفس هي حب الذات، والمراد بحب الذات هنا النزوع الطبيعي الذي يحمل الإنسان على الدفاع عن نفسه، وحفظ بقائه، وتنمية وجوده، والميول الأنانية الناشئة عن هذا النزوع مقابلة للميول الغيرية. ومن كلمة الأنانية Egoïsme اشتقت كلمة Egocentrisme  والتي جاءت متن الكلمة اللاتينية "ego" ـأو "moi" وهي الأنا حسب علم النفس الفرويدي أو je أما كلمة "centrisme" فقد جاءت من كلمة "centrique" وهي التمركز حول الأنا. مثل: الطفل الصغير يتمركز حول أناه: Le très jeun enfant est égocentrique

يعني أن الطفل له نزعة أو ميل نحو اعتبار كل شيء يعود إليه ولا يشاركه في ذلك أحد. وعندما ننظر إلى الغرب من خلال هذا المفهوم يمكن القول أن أوربا مصابة بمرض تمركز الأنا وهذا ما يعرف بالمركزية الأوروبية، وهي نزعة تحاول إرجاع كل شيء إليها، أما بقية الشعوب الأخرى لم تقدم شيئا للإنسانية، ومن ذلك العرب الذين اعتبرهم المستشرقون مجرد حلقة ربط بين الحضارة اليونانية والحضارة الغربية، وكأن العرب لم يبدعوا شيئا ولم يساهموا في إمداد الإنسانية بشيء. وكل ما قاموا به هو مجرد ترجمة و نقل لتراث الحضارة اليونانية .

**2/- الطبيعة:nature**

**هي القوة السارية في الأجسام التي يصل بها الموجد إلى كماله الطبيعي. و هذا المعنى هو الأصل الذي ترجع إليه المعاني الفلسفية التي يدل عليها هذا اللفظ.**

**من هذه المعاني قولهم:**

**إن طبيعة الشيء ماهيته: و هي مجموع ما يتميز به الشيء من خواص نوعية. كطبيعة الحياة و طبيعة النفس و طبيعة الفرد و المجتمع.**

**و طبيعة الشيء إذن هي سر نموه و تغيره و حركته.**

**و من هذه المعاني قولهم: إن الطبيعة هي ما يتميز به الإنسان من صفات فطرية و هي ضد الصفات المكتسبة.**

**يقال طبيعة الإنسان العاقلة: أي مجموع وظائفه العقلية الفطرية. و يقال أيضا طبيعة الإنسان الحسية: أي دوافعه الغريزية. و يطلق لفظ الطبيعة على النظام أو القوانين المحيطة بظواهر العالم المادي .**

**3/-الغريزة:**

كان يعتقد قديما أن الغريزة تخص سلوك الحيوانات دون سلوك البشر. و كان ديكارت يعتقد بجود ثنائية واضحة بين غريزة الحيوانات ذكاء الإنسان. و كان الإنسان هو حده من يختص بالذكاء. لكن لوحظ فيما بعد أن الإنسان بالمقابل كان يسلك بعض السلوكات التي تشبه سلوك الحيوانات.

غير أنه حديثا بدأ ينظر إلى نظرية الغريزة على أنها غالبا ما تقرن باسم وليم كاك دوفال الذي ظهر في كتابه الموسوم بعلم النفس الاجتماعي سنة 1908. كان يدور هذا الكتاب حول نظرية مؤداها : ‘’ أن الغريزة هي الدوافع الأولى لكل فعالية بشرية .فإذا نحن حذفناها غدت العضوية عاجزة عن أي فعالية . إن الغرائز هي القوى التي تكيف حياة الأفراد و المجتمعات. و من جملة الأفكار الأساسية التي كان ينادي بها هذا العالم وصفه للغريزة أنها ‘’ استعداد فطري يحمل العضوية على الإدراك أو الانتباه لكل شيء يتصل بفئة معينة على الشعور اتجاهه بشيء من التأثر العاطفي، و على العمل أخيرا أ الشعور بدافع إلى العمل يبرز بطريقة سلوك معينة اتجاه هذا الشيء.’’ لقد ساند ماك دوغال في موقفه هذا بعض العلماء أمثال ثورندايك و فارين بعد أن أضافوا إليها بعض التصحيحات. غير أن هذه النظرية في الغرائز لم تسلم من الانتقادات .

و من هذه الأخيرة : إهمال كلمة الغريزة نفسها من حيث أنها تشير إلى شيء سري غير ملموس لا يتصل بميدان العلم.[[2]](#footnote-3). هذا الأمر قاد بعض العلماء إلى استبدال مفهوم الغريزة بالرغبة و من أمثال هؤلاء: دنلاب، كالرغبة في الغذاء و الرغبة في الاستحمام و الرغبة في الراحة و الرغبة كذلك في التبرز.

و هناك من استعاض عن الغريزة بالدوافع كعالم النفس غورني gournee و الذي اعتبر الدوافع عبارة ثورات داخلية تدفع العضوية على بذل جهد لإزالة هذا التوتر . و هناك من العلماء، عالم النفس موري murray الذي استخدم مصطلح الحاجات needs الذي اعتبرها أمور فطرية. الا أن من بين جميع هذه المحاولات التي قام بها العلماء في تفسير الغريزة نجد العالم براون الذي أخضعها للبحث متبينا نظرية تدعى بنظرية المجال التي تعلل السلوك على أنه: حصيلة تفاعل الفرد بمحيطه الطبيعي و الاجتماعي بعيدا عن تأثره بطبيعة الفرد.

و هذه قفزة نوعية حيث تؤكد أن الطبيعة البشرية لا يمكنها أن توجد بعيدا عن بنية المجال الاجتماعي، مبررين ذلك بأنه حتى الميول الأساسية كالميل إلى حفظ البقاء و حفظ النوع لا يمكنها أن ترجع إلى الطبيعة البشرية . فالمنتحرين مثلا و أصحاب الجنسية المثلية هم بشر و لا يمكن النظر إليهم على أنهم حالات شاذة.

فحسب العالم براون كل فرد في بعض ظرف المجال يمكنه أن يصبح مثلي الجنسية و له قابلية للانتحار.

لكن هذا العالم لم تسلم آراؤه من الانتقادات بحيث لوحظ أن هناك مبالغة في رده كل شيء للمجال الاجتماعي متناسيا الطبيعة البيولوجية أو العضوية للإنسان، و مالها هي الأخرى من تأثير على المجال الاجتماعي نفسه.

ما يمكن استخلاصه كنتيجة لذلك، هو أن هناك تكامل و تفاعل بين الجانبين، البيولوجي و الاجتماعي ممثلا في الجوانب الثقافية.

يمكننا بعد هذا الشرح المستفيض لنظرية الغريزة تحديد أهم التعاريف التي يمكن أن يأخذها هذا المفهوم. و منها:

1/- مجموع معقد من ردد الأفعال الخارجية و الوراثية المشتركة بين جميع أفراد النوع. و المتعلقة بغرض معين لا يشعر به الفاعل.

- و قد تطلق على الاندفاع الإرادي المصحوب بالاحتياج . و هي صورة من صور النشاط النفسي، و طراز من السلوك يعتمد على الفطرة و الوراثة البيولوجية.

2/-هي الدافع الحيوي الأصلي الموجه لنشاط الفرد. و العامل على حفظ بقائه و المؤدي إلى إقباله على الملائم و إحجامه عن المنافي..

3/- عند بعض الفلاسفة: هي الطبيعة المقابلة للعقل، إن الغريزة و العقل نمطان متوازيان من أنماط الفعل و المعرفة.

إن التعريف الأول و الثاني يركزان على البعد الوراثي للغريزة و الذي يخص نوعا معينا سواء كان إنسانا أو حيوانا.

أما التعريف الأخير يقابل الغريزة بالعقل. على أن السلوك الغريزي يختلف كلية عن السلوك العقلي.

و إذا ما حاولنا المقارنة بينهما، يمكننا الخروج بجملة من الاختلافات أهمها:

- أن الغريزة سلوك نمطي ثابت لا يعرف التغير.بينما السلك العقلي أي الإنساني متغير و فيه إبداع ابتكار تجديد.فإذا لاحظنا سلوك النحلة و هي تصنع خليتها في شكلها السداسي، فان هذا الشكل الهندسي لازمها منذ الخليقة أو منذ وجدها و هي على هذا الحال.لم تغير و لم تجدد في ذلك. بينما الكانسان في سلوكه يعرف في كل مرة تجديدا و ابتكارا. فقد كان يصنع الأكواخ ثم المنازل ثم انتقل الى ناطحات السحاب و ه يفكر في بنايات على سطح القمر أو تحت أعماق البحار.

- ان السلوك الغريزي فطري بينما السلوك الإنساني مكتسب. فالطير بمجرد أن تكبر أجنحتها تطير من أعشاشها، و السمكة أو الضفدع بمجرد ما تخرج من البيضة تسبح في الماء. بينما الكانسان يتطلب منه أن يخضع لفترة من التعلم . قد تطول مقارنة مع الحيوان. فالإنسان طيلة حياته و هو يتعلم و لا يعرف نهاية لذلك حتى إن تنقضي حياته.

- السلوك الغريزي أعمى و غير متبصر، بينما السلوك الإنساني فيه وعي و استبصار. لقد قام أحد علماء النفس بتجربة حيث وضع بيضة بط و حضنها تحت دجاجة و لما أفقست لم تعر الدجاجة أي انتباه لشكل و حجم البط، مقارنة مع حجم فراخها. فهي تحضنه تحميه مثلما تحمي صغارها. لكن لو كان الإنسان مكانها لطرح كثيرا من الأسئلة و لأخذته الحيرة الارتباك من ذلك.لأنه بكل بساطة صاحب عقل. ثم إن الإنسان عند محاولته صنع شيء فانه يصنعه في عقله قبل أن يصنعها في الواقع و هذا ما أشار إليه ماركس و أكده. خاصة عندما يضرب مثالا يقارن فيه بين النحلة و أمهر المهندسين.

**:تابع لتحديد المفاهيم المتعلقة بالفرد والثقافة**

**الثقافة:**

**I/ - لغة:** عند محاولتنا تحديد مفهوم الثقافة لغة واصطلاحًا نصطدم بكم هائل من التعاريف، وقد يعود سبب ذلك إلى اختلاف وجهات نظر أصحابها.

- فمن حيث اللغة فقد اشتقت أساسا، كلمة ثقافة من الفعل الثلاثي:

ثُقُفَ، غير أن لهذا الفعل مفاهيم مختلفة نوجزها في ما يلي:

**- المفهوم الأول:**

تعني كلمة "ثَقُفَ" بمعنى وَجَدَ، صادق كما جاء في قوله تعالى:

- "واقتلوهم حيث ثقفتموهم"

- ولها المعنى نفسه كذلك في قوله تعالى: "وضُربت عليهم الذّلةُ أينما ثقفوا"

**- المفهوم الثاني:** وقد تعني: الغلبة في قوله تعالى: "إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداء"

أي بمعنى إن يغلبوكم يكونوا لكم أعداء.

**- المفهوم الثالث**: وقد يقصد بها حسن استعمال السيف.

**- المفهوم الرابع:** ومن معانيها كذلك الخِصَامُ أَوِ العِرَاكُ.

**المفهوم الخامس:** قد تعني حموضة الشيء.

**- المفهوم السادس:** تعني الحذق والفطنة والذكاء وسرعة الفهم.

في لسان العرب في المجلد العاشر (ابن منظور):

- يقال ثقف الشيء: سرعة التعلم أي أسرع في تعلّم الشيء.

- وفي حديث الهجرة: "هو غلام شاب لقن ثَقِفٌ: أي ذو فطنة وذكاء، والمُراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.

- والعلاقة فريد وجدي يقول في دائرة معارف القرن العشرين/ المجلد الثاني:

- ثقف، يثقف ثقافة، فطن وَحَذق

- وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه...

- وفي القواميس الحديثة يقال: ثقف: صار حاذقا خفيفا. وثقف الكلام فهمه بسرعة.

**ملاحظة:**

- إن كلمة ثقافة في العربية تختلف عن المعنى المتداول اليوم، لهذا يقول مالك بن نبي "الواقع أن فكرة ثقافة كما سبق أن قلنا حديثه جاءتنا من أوربا والكلمة التي أطلقت عليها هي نفسها صورة حقيقية للعبقرية الأوروبية."

- ولهذا فإن كلمة ثقافة في العربية لم تكتسب المعنى الذي أخذته وترعرت فيه كلمة ثقافة في أوربا.

- ففي فرنسا ارتبطت الثقافة بالزراعة: agriculture, culture

- وفي ألمانيا ارتبط مفهوم الثقافة بمفهوم الحضارة: civilisation

- وعند البحث في تاريخ كلمة "ثقافة" يحيلنا إلى أصلها اللاتيني فكلمة culture مشتقة من كلمة " culture" التي تعني زرع، أقام، اعتنى، صام، احتفظ وهي كثيرة في الأصل إلى علاقة الإنسان بالطبيعة من حيث العناية والصيانة حتى تصبح صالحة للإيواء: إذن يمكن القول أن:المفهوم "ثقافة" ينطبق على الأعمال الموجهة للحقول. أي فلاحة الأرض وزراعتها. فالأرض من غير ما يضاف إليها من نشاط أو فاعلية إنسانية تبقى أرضا قاحلة ولا تلبي مطالب الإنسان وحاجاته

، ثم تطور المفهوم ليأخذ معاني منها ثقافة العقل وثقافة البدن من خلال الاعتناء به من كل الجوانب كالتغذية والصحة والرياضة...

لتظهر بذلك ثقافة التغذية صحية وثقافة رياضية وثقافية في اللباس...

- وانطلاقا من كل المعاني التي عرفها مصطلح "الثقافة" عند محاولتنا البحث والتنقيب عن جذرها الاشتقاقي يمكن القول على غرار ما قال الدكتور محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم أنه جمع كل هذه المفاهيم في معنى واحد وهو: الإدراك على وجه الإطلاق سواء كان هذا الإدراك بالنظر أو التدبر، غير أن جميع هذه المعاني قد تنوسيت وتوقف استعمالها في أواخر القرون الوسطى باستثناء القليل منها.

وقد يرجع توقف استعمال تلك المعاني التي أشرنا إليها سابقا إلى التطور الفكري والحضاري للشعوب إلى الاندماج الثقافي الذي يؤدي إلى عملية التثاقف، أضف إلى ذلك التقدم المادي الذي عرفته الحضارة الغربية، كل هذا قلل من معاني الثقافة ليحصرها في العلم النظري وفي تطبيقاته المادية أو ما يعرف بالتكنولوجيا.

**ب/ الثقافة اصطلاحًا:**

يتفق علماء الأنثروبولوجيا جميعهم أن الثقافة هي الموضوع الذي يدرسه علم الأنثروبولوجيا، غير أنه عند محاولتهم تعريفها تتفرقوا شيعا ولذلك نجد الاتفاق بينهم يقع للمرة الثانية على الاختلاف في ضبط تعريف جامع ومانع وقد يكون سبب ذلك إلى شمولية المفهوم واتساع مجالات استعمالاته وتشعبه في المجال الأنثروبولوجي.

وقد قام في هذا المجال كل من العالمين الأنثروبولوجيين الأمريكيين: "كروبر" و"كلوكهن" بفحص ما يزيد عن مائة وستين تعريفا صاغها علماء الأنثروبولوجيا للثقافة.

- انطلاقا من هذا التعدد والتنوع الذي عرفه مفهوم الثقافة يمكن تصنيفها إلى فئات مختلفة وهذا ما ذهب إليه محمد السويدي حينما صنفها إلى تعاريف.

وصفية، وتاريخية، ونفسية وبنائية ووراثية..

يتمثل التعريف الوصفي وهو التعريف الذي يتميز بالصفة العلمية الواقعية والذي يبعدها عن المعنى المعياري ولهذا نجد العالم الأنثروبولوجي تايلور هو من تحقق له هذا الأمر حيث انتقل بالثقافة المعيارية إلى الواقعية أي ما ينبغي أن تكون عليه الثقافة إلى البحث فيها هي كائنة في المجتمعات البشرية، وقد عرفها على أنها: أي أن الثقافة أو الحضارة بمعناها الاتنوغرافي الواسع، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراق وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع..."

إن ما يميز هذا التعريف، طابعه الشمولي والكلي، فهو من جهة لا يميز بين الثقافة والحضارة، ومن جهة أخرى تميزه بالحيادية حيث جعل من الثقافة خاصية إنسانية تخص كل البشر، فهو لم يستثني حتى تلك الأقوام البدائية المميزة بالبساطة، إنها والشعوب المتطورة سواء. وبذلك يكون قد أخرج موضوع الثقافة خاصة وعلم الأنثروبولوجيا عامة من الدراسة الذاتية المصبوغة بالطابع الإديولوجي الاستعماري إلى البحث العلمي الذي يتميز بالموضوعية.

- وبالنسبة التعريفات التاريخية فإن ما يميزها عن باقي التعاريف الأخرى تركيزها على العادات والتقاليد وعلى التراث الاجتماعية عموما، ومنها التعريف الذي قدّمه إدوار سابير الذي اعتبرا الثقافة مجموعة الممارسات والمعتقدات المتوارثة اجتماعيا، والتي تحدد جوهر حياتنا"

- أما بخصوص التعريف المعياري يخص ما تقدم به العالم الأنثروبولوجي هيزجوفتش حينما عرف الثقافة على أنها: "طريقة حياة الناس بينما المجتمع هو جمع منظم من الأفراد الذين يتبعون طريقا معينا للحياة، وبتعبير أبسط فإن المجتمع يتكون من الأفراد أما الطريقة التي سيكون بها فتؤلف ثقافتهم"  
بذلك يكون هيزجونتس قد جعل من الثقافة طريقة وأسلوب يُتبع، والطريقة القاعدة التي وافقت عليها الجماعة وارتضتها وتقبلها فأصبحت إلزاما يفرض نفسه على الجميع ومعيارا يلتزم به كل فرد ينتمي إلى هذه الجماعة.

- وتركز التعريفات السيكولوجبة على ظاهرتي التكيف والتعلم في الثقافة ومنها ما قدمته كارل غوستاف يونغ حينما عرّفها قائلا: "هذه الأساليب الشعبية Folkways هذه الأساليب المستمرة لمعالجة المشكلات والنظم الاجتماعية نطلق عليها الثقافة.

إن الثقافة تتكون من ذلك الكل من السلوك المتعلم أو نماذج سلوك أي جماعة التي تتسلمها من جماعة سابقة أو جيل سابق عليها ثم تتسلمها بدورها بعد أن تضيف إليها جماعات لاحقة أو جيل لاحق"

وتتسم التعريفات البنيوية بإعطاء الثقافة خاصية البناء والتنظيم. فقد عرفها ريد فيلد على أنها: "تنظيم من المفهومات التقليدية التي تظهر في الفعل والمصنوعات والتي تميز أي جماعة إنسانية من خلال استمرارها بواسطة التقاليد."

- أما التعريفات التطورية تركز على جذور الثقافة وأصولها فتنتظر إليها على أنها نتاجا أو مجموعة أفكار أو رموز.

فعرفها هيزوجوفيتش بأنها ذلك الجزء من البيئة الذي صنعه الإنسان وبخصوص كونها أفكار ما جاء في التعريف الذي اعتبرها "رابطة محددة ومركبة من الأفكار"

وأخيرًا فكرة الرموز التي قال بها ليزلي هوايت في تحديه للثقافة قائلا: هي "تنظيم خاص من الرموز"

- وتأتي التعريفات الشمولية والتي تنظر إلى الثقافة نظرة شاملة تلم بمختلف جوانبها وأبعادها. هذا ما عبر عنه التعريف الماركسي الذي اعتبر "الثقافة هي نشاط البشرية التحريري الخلاق، وكذلك نتائج هذا النشاط ويميز عادة بين الثقافة المادية (التكنيك والخبرة الإنتاجية والثروات) والثقافة الروحية التي تشمل (العلم والأدب والفن والفلسفة والأخلاق...) والثقافة السياسية وتمثل (أهداف ووسائل ونتائج نشاط المجتمع أو الطبقة أو الأفراد، واتي تعبر عن درجة التطور الاجتماعي للفرد كذات فاعلية للتغيرات في العلاقات الاجتماعية".

ومهما قيل من تعاريف حول الثقافة، يمكن القول أنها نظرت إلى الثقافة من زوايا مختلفة لم تعط للثقافة حقّها.

وليس هناك من شك في أن الدراسات الأنثروبولوجية عامة ودراسات "تايلور" أبو الأنثروبولوجيا خاصة قد ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في تطوير التعريفات السيكولوجية والسوسيولوجية للثقافة وفي تطور مصطلح الثقافة بوجه عام.

**- معان أخرى للثقافة:**

- يعتبر التعريف الأنثروبولوجي للثقافة أكثر التعريفات شمولا. فهناك الكثير من الناس من يعتقد أن الثقافة تخص الناس في المجتمع، فهي ترادف ما يملكه الإنسان من معرفة وعلم في ميدان أو تخصص معين.

فالمثقفون في المجتمع هم أولئك الأشخاص الذين أخذوا حظًا من التعليم في المدارس والجامعات "فالمثقف أو على الأصح المتحضر: هو الشخص الذي استطاع أن يصل إلى درجة التمكن في بعض مجالات المعرفة هي عادة: الفن، والموسيقى والأدب، وهو كذلك الذي يتميز بآداب سلوكية راقية"يفهم من هذا أن أولئك الذين لم يسعفهم الحظ في التعلم كالفلاحين والحدادين والنجارين والذين نشؤوا في مجتمعات غير مهذبة لا يعدون من أهل الثقافة فهم إلى الهمج أقرب .

-إن المتأمل في هذا المعنى الذي أعطي الثقافة، يوحي له بأنه قد ارتبط بالنشأة الأولى للأنثروبولوجيا، وهي ما تعرف بالأنثروبولوجيا الاستعمارية انطلقت من مفهوم أن أصحابها هم أهل الحضارة والتقدم وغيرهم من الشعوب الأخرى، شعوب القبائل البدائية وشعوب العالم الثالث متخلفون، بل ذهب لفي بريل وهو أحد علماء الاجتماع الفرنسي إلى اعتبار القبائل البدائية شعوب ما قبل المنطق.

والاستعمار ما هو إلا محاولة لجلب الحضارة والتقدم لهذه الشعوب. غير أن هذا التمييز ليس لهع أي دلالة من وجهة النظر الأنثروبولوجية. فالثقافة ليست مقصورة على مجالات النشاط البشري بأنواعها كافة. فالثقافة لا تتضمن فقط تقنيات ومناهج الفن والموسيقى والأدب، وإنما تشمل كذلك التقنيات والطرق المستخدمة في صناعة الفخار أو حياكة الملابس أو بناء البيوت..." فهي تمثل أسلوب حياة أو طريقة عيش مجتمع ما. مهما كان مستواه من التدني و الانحطاط أو من التقدم.

وعلى أساس هذا المعنى يمكن القول أن للثقافة معنيان: الأول خاص ويقصد به الفئة المتعلقة والمثقفة في المجتمع وهم المهندسون والأساتذة والأطباء والمحامون... أما بقية الناس فلا يمثلون الثقافة وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى التمييز بين فئات المجتمع

- أما المعنى الثاني العام وهو الذي يجعل منت الثقافة ظاهرة تخص الإنسان كيفما كان لونه أو عرقه أو دينه أي أنها تمس كل أنواع النشاط الإنساني مهما تباينت واختلفت كعادات الطعام وعادات اللباس والطرق والقواعد التي تحكم سلوك الناس

.

**2/- تابع في تحديد مفاهيم الثقافة والمفاهيم المتعلقة بها:**

**2/1- في مفهوم الطبيعة:**

أ- الطبيعة هي القوة السارية في الأجسام التي يصل لها الموجود إلى كماله الطبيعي وهذا المعنى هو الأصل الذي ترجع إليه المعاني الفلسفية التي يدلّ عليها هذا اللفظ.

\* ومن هذه المعاني قولهم:

- إن طبيعة الشيء ماهيته: وهي مجموع ما يتميز به الشيء من خواص نوعية كطبيعة الحياة، وطبيعة النفس، وطبيعة الفرد والمجتمع.

فطبيعة الشيء إذن: هي سرّ نموه وتغيره وحركته.

- ومن هذه المعاني كذلك قولهم:

إن الطبيعة هي ما يتميز به الإنسان من صفات فطرية وهي ضد الصفات المكتسبة يقال: طبيعة الإنسان العاقلة : أي مجموع وظائفه العقلية الفطرية.

ويقال أيضا: طبيعة الإنسان الحسيّة، أي دوافعه الغريزية. ويطلق لفظ الطبيعة على النظام أو القوانين المحيطة بظواهر العالم المادي.

ب- الغريزة:

اختلف العلماء في تحديد هذا المفهوم (الغريزة) Instinct وذهبوا في تحديد ماهيتها مذاهب تسمّى بحسب توجهاتهم المذهبية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعود السبب في اقتراب مفهوم الغريزة من مفاهيم نفسية أخرى متعددة قد تتشابه معها (كالميل والحاضر والرغبة والدفع...) لأن هذه المفاهيم عموما تدفع الفرد إلى سلوك معين في اتجاه هادف"

- ومن تعاريف الغريزة ما جاء به هربرت سبنسر Herbert Spencer "بأنها فعل منعكس مركب أو أنها سلسلة متعددة الحلقات وكل منها فعلا منعكسا بسيط.

- ولتوضيح ذلك يضرب مثالا على ذلك أن العصفور يقوم بالتقاط الأعشاب الجافة ثم يقوم ببناء العش كمكان للمبيت وللتبييض والاحتضان والتفقيص وهكذا. والأمر نفسه بالنسبة لباقي الحيوانات الأخرى. وهذه الأفعال كلها عبارة عن ردود أفعال وحركات آلية منعكسة ناتجة عن الأفعال التي سبقتها.

وهذا التعريف نجده قريبا من التعريف الذي جاء به جميل صليبا في معجمه والذي يعتبر الغريزة: "مجموع معقد من ردود الأفعال الخارجية والوراثية المشتركة بين جميع أفراد النوع والمتعلقة بغرض معين ولا يشعر به الفاعل"

- إن المتأمل في التعريفين يكتشف أنهما جعلا من الغريزة سلوكا يشبه الأفعال الشرطية المنعكسة هذا النمط من الأفعال يشبه السلوكات الآلية العمياء فسبنسر هنا اعتبر: "السلوك الغريزي جملة حركات آلية متتابعة، كل حركة منها تكون بمثابة ردّ فعل منعكس للفعل الذي قبله"

- غير أن هذا الرأي أضحى لا يتفق مع توصل إليه علماء آخرون حتى أن هناك ثمة فروق بين الأفعال المنعكسة والسلوكات الغريزية.

"فالفعل المنعكس يشتمل على مظهري الحس والحركة دون أن يكون فيه دخل للشعور، في حين أن السلوك الغريزي يتكون من مظاهر الشعور الثلاثة هي:

الإدراك والانفعال والنزوع، كما أن الفعل المنعكس يجري دوما على وثيرة واحدة، بينما السلوك الغريزي يمتاز بقابلتيه للتغير والتعديل وإن كانت هذه القابلية محددة" مقارنة مع السلوكات الإنسانية.

- وعلى هذا الأساس هناك من ذهب إلى تعريف الغريزة على أنها: "استعداد نفسي فطري يجعل صاحبه ينتبه إلى مؤثرات معينة يشير إدراكه لها انفعالا خاصا يدفعه إلى أن يسلك سلوكا خاصا، أو يشعره على الأقل بنزعة لإتباع مثل تلك السلوك"

ومن التعاريف التي تقترب من هذا المعنى ما جاء به جميل صليبا عندما عرفها كذلك بأنها: "الدافع الحيوي الأصلي الموجه لنشاط الفرد والعامل على حفظ بقائه والمؤدي إلى إقباله على الملائم وإحجامه عن المنافي"

أو هي "الاندفاع الإرادي المصحوب بالاحتياج، وهي صورة من صور النشاط النفسي، وطراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية:

وهذان التعريفات قد يصدقان على السلوك الغريزي الحيواني والإنساني وأنه كان بينهما ثمة اختلاف سنتعرض إلى ذلك فيما بعد.

وانطلاقا من هذا التعريفين الأخيرين يمكن استخلاص أهم العناصر التي تشكل الفعل الغريزي وهي: الإدراك cognition **+** **الانفعال أو الوجدان + النزوع أو الرغبة.**

الإدراك ويقصد به المعرفة وهي التعرف على الشيء وتمييزه عن بقية الأشياء الأخرى بحيث كثير فينا انفعالا يولد لنا رغبة وميلا في اتخاذ سلوك ما.

- ولا نريد الخوض في إشكالية الإحساس والإدراك، هل الإحساس هو إدراك أم الإدراك هو شيء أعلى من الإحساس.

فهناك مواقف فكرية حاولت التمييز بينهما على غرار ما ذهبت إليه النظرية الذهنية مع ديكارت والآن وما ذهب إليه أنصار مدرسة علم النفس النشوئي.

في حين نجد نظريات أخرى ترفض هذا التميز ومنها المدرسة الجشطتلية أو ما تعرف بعلم النفس الشكلي إلى جانب المدرسة الظواهرية.

- وما يهمنا من كل ذلك أن: الإدراك عملية معقدة تتداخل فيها عناصر خارجية وأخرى داخلية. تمثل الأولى المحيط الخارجي وما ينطوي عليه من مثيرات أما الخارجية تمثل العضوية وما تمتلكه من قدرات عضوية وخيارات وتجارب نفسية، كل تلك العناصر تتكاثف من أجل عملية متكاملة هي الإدراك.

أما بخصوص سؤال:هل للحيوانات إدراك وبالتالي معرفة على غرار الإنسان الذي يمتلك عقلا.

فأن الفصل في ذلك أن للحيوان إدراك لكن يبقى في حدود متطلبات عضوية وبيولوجية هذا الكائن لأن مدركات الإنسان يكتنفها التجريد والتعميم وهاتين العمليتين عقليتين تميز الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى.

- والعنصر الثاني من عناصر الغريزة: الانفعال أو الوجدان Emotion، والذي يعرف أنه استجابة نفسية وفسيولوجية تؤثر في الإدراك وفي تعلم وأداء الفرد. وقد يكون هذا الانفعال حادًا فيسمى هيجانا.

وهو انفعال حاد مفاجئ يصيب الكائن بالاضطراب النفسي والفيزيولوجي وفي سلوكه الاجتماعي، وهو سلوك لا يدوم طويلا.

- يمكن القول أن الانفعال هو حالة عامة تؤثر في جميع أوجه النشاط الذي يقوم به الكائن الحي سواء كان هذا النشاط نفسيا أو فيزيولوجيا.

- وآخر العناصر المكونة للغريزة: النزوع أو الرغبة في الشيء والاشتياق إليه وتسمى هذه العناصر بمظاهر الإجراء العقلي لأنها تمثل إجراءات التفكير يصدر عنها السلوك في جميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان.

فالمعرفة تتجلى في إدراك طبيعة المؤثرات الحسيّة التي يشعر بها الكائن الحي والانفعال هو الوجدان الذي تثيره تلك المعرفة والنزوع وهو ما يولده الانفعال من رغبة في اتباع سلوك معين.

- فالكلب مثلا يندفع نحو صاحبه لأنه ميزه عن غيره فعرفه، هذه المعرفة أيقظت فيه انفعال الود والتودد الذي بدوره أثار الرغبة في الجري نحوه.

ولما كان السلوك الغريزي يشترك فيه الإنسان والحيوان إلا أن هناك اختلاف واضح بينهما وقد يعود سبب هذا الاختلاف إلى اختلاف نوع الكائن الحي وسلالته وإلى اختلاف كذلك أفراد النوع الواحد.

وكذلك إلى التطورات التي تتعرض لها الغرائز عند الكائن الحي.

وتطور الغرائز يتوقف في الآخر على الذكاء ومرونة الأعصاب والتي لها علاقة بالقدرة على التعلم، هذا إلى جانب البيئة ومالها من تأثير على تطور الغريزة. وأكبر مثال على ذلك أن الإنسان قد بلغ مرتبة راقية إلى جانب قابليته الواسعة لتعديل سلوكه مقارنة مع سلوك الحيوانات وخاصة غير الأليفة والتي بقيت ثابتة ومحدودة جدً ا.

- وهناك ملاحظة ينبغي الإشارة إليها أن عملية التطور لا تشمل كل عناصر الغريزة بل تقتصر على عنصري المعرفة والنزوع بينما يبقى عنصر الانفعال ثابت.

- ومن المفاهيم التي لها علاقة مع مصطلح الغريزة نجد مفهوم:

- **الدوافع:** في المعجم الفلسفي لجميل صليبا: أن كلمة دافع مشتقة من الدفع. دفع فلان إلى الشيء حمله على فعله والدافع هو المحرك.

وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الدوافع الانفعالية أو اللاشعورية التي تحرك نشاط الفرد وتوجهه إلى غاية معينة.

وهناك من يذهب إلى حدّ التفريق بين الدافع والباعث.

فالأول يقصد به الأمور الانفعالية أما الثاني يقصد به الأمور العقلية. يقول بول جاني: "يخضع كل إنسان في عمله لأسباب شعورية أو لا شعورية.إذا كانت هذه الأسباب عقلية سميت بالبواعث وإذا كانت حسيّة أو انفعالية سميت بالدوافع والحوافز. فالبواعث توجه والدوافع تحرك والإنسان لا يستطيع أن يتجرد منها أبدا"[[3]](#footnote-4) فهناك تمييز بين الدافع و الباعث، فالأول مادي حسي يرتبط بالعضوية و بالغريزة و الثاني عقلي يرتبط بالعقل.

**العلاقة بين الثقافة والطبيعة**

**- الاشكال: هل الثقافة هي إضافة للطبيعة أم مواجهة لها؟**

**- بعبارة أخرى: هل الثقافة هي ما يضيفه الإنسان إلى الطبيعة أم ما يواجهه بها**

**I- الثقافة إضافة إلى الطبيعة:**

إن البحث في تاريخ كلمة ثقافة يحيلنا إلى الأصل اللاتيني، لكلمة Culture المستوحاة من كلمة colère التي تعني زرع- أقام، اعتنى، صان، احتفظ ولذلك فالطبيعة من مفاهيمها البيئة الطبيعية أو الجغرافية التي يستقر فيها الإنسان.

فالأصل اللاتيني للكلمة يشير إلى علاقة الإنسان بالأرض (الطبيعة) من حيث العناية والصيانة حتى تصبح صالحة لإيوائه، إذ يمكن القول أن: مفهوم ثقافة: "ينطبق على الأعمال الموجهة للحقول"أي فلاح الأرض وزراعتها. فالأرض من غير ما يضاف إليها من نشاط إنساني تبقى أرضا قاحلة ولا تلبي مطالب الإنسان.

- ثم إن الثقافة لا تعني فقط العناية بالأرض بل كذلك العناية والاهتمام بالبدن وهذا ما يتعارف عليه اليوم بمصطلح التربية البدنية، فالبدن مثله مثل الأرض لا يعطي ثماره ما لم يهتم به، ولذلك نجد المجتمعات تخصص برامج رياضية لهذا الأمر، ولذلك نجد كلمة Culturisme تعني رياضة كمال الأجسام وجمالها، فالمجتمعات استطاعت اليوم أن تجعل نسبيا من القصر طويلا ومن الضعيف قويا، من خلال ما يدخل على جسم الإنسان من تعديلات وإنه كانت هذه الأخيرة لا تمس الجوانب الوراثية في الإنسان.

- والثقافة كذلك من معانيها، ثقافة العقل والفكر وذلك من خلال تحصيل المعرفة "فالعقل مثل الأرض يتم تثقيفه حتى يعطي ثماره، فالثقافة من الجانب يمكن اعتبارها تكوين أو قرينة عقلية."

ولذلك يمكن اعتبار المثقف في المجتمع، ذلك الشخص الذي يضيف إلى طبيعته الجاهلة، المعرفة العلمية، والثقافات الوطنية مهما كانت الاختلافات التي تميزها تستهدف غاية واحدة، منح الكائنات الإنسانية أسلم الاستعدادات العقلية والجسدية والروحية.

وتتمثل الاستعدادات العقلية في تعليم وتلقين المعرفة للنشء من خلال ما توفره الثقافة للبلد من برامج تعليمية وتربوية ولذل تعني التربية عند أغلب الشعوب الأنشطة التي تتم في المؤسسات الرسمية التي تعرف في مجتمعنا باسم المدارس والتي قد تكملها القراءات والمطالعات التي تخضع لقدر كبير من التنظيم الرسمي."

- إلى جانب المعاني التي اتخذها معنى الثقافة والتي تعد إضافات للطبيعة الجغرافية أو الطبيعة العاقلة عند الإنسان.

فإن الإنسان كائن حيواني يمتلك غرائز حيوانية عمياء، ولكن تحت ما يدخله عليها نمنمن تعديلات ممثلة في (الأخلاق، الدين، القوانين) تجعله ينسجم مع البيئة الاجتماعية ويعيش وفق نظام افرضه عليه هذه البيئة ولذلك وصف الإنسان بأنه حيوان مثقف علما أنه هذا الأمر يتم عند الأطفال عن طريق "غرس مظاهر السلوك في الذهن بشكل عمدي مقصود في الكثير من الأحيان فالكبار لا يقتصرون على مجرد إخبار الطفل شيء بشكل متكرر ولكنهم يمكن كذلك أن يضربوا له الأمثال..."

- وإذا حصرنا المفهوم (الثقافة) في بعده الاجتماعي، لوجدنا أنه لا ينطبق على نخبة معينة في المجتمع، بل على كل فرد في المجتمع، لأن الحياة الاجتماعية تتطلب من الفرد الانصهار في الحياة الاجتماعية وما تمهده من عادات وتقاليد وأعراف عبر الدين.

ثم إذا اعتبرنا أن الثقافة هي ما يضيفه الإنسان إلى الطبيعة لأصبح النجار والحداد والفلاح والخياط من المثقفين، لأنه كل إنتاجاتهم لا تأتي من العدم، بل تعتمد على ما تمده بهم الطبيعة من مواد خام.

فالثقافة إذن تكتسب وتسمح للمكتسب بالتلاؤم مع الوسط الطبيعي، فهي "جملة الأفكار التي يخترعها العقل البشري، وينفذها الإنسان بأعضائه وبغيرها من الأدوات والآلات التي يصنعها..." وبذلك تكون هذه الثقافة إشباع حاجات الإنسان للتكيف مع البيئة.

وعلى هذا الأساس ينظر أحد علماء الأنثروبولوجيا (Ford) فورد للثقافة على أنها: "قواعد تحكم السلوك الإنساني وتعطي حلولا للمشكلات الاجتماعية". ولذلك هناك من يشبهها بالمتاهة التي تحوي مجموعة الحلول الممكنة للمشكلات المطروحة.

ولما كانت الثقافة ترتكز على مجموعة العناصر الأساسية،ـ الدين والمعتقدات والطقوس السحرية واللغة والتقنية والذوق الجمالي، فإنه استعان بها ليتمم بها عالمه الطبيعي.

فإحساس الإنسان بالضعف أمام جبروت الطبيعة جعلته يحتمي بقوة أكبر لعلها تحميه، فتنوعت بذلك معتقداته وطقوسه وعبادته للآلهة. فعبد الأشجار والحيوانات والأحجار... ولذلك نجد مصطلح الثقافة يشير إلى عبادة الآلهة Culte de dieu (أي العناية بالآلهة) كالعناية بالأرض وزراعتها.

- وبخصوص الفن، فكون الإنسان صاحب ذوق، وله ميل نحو تذوق الأشياء الجميلة، راح يضفي على مصنوعاته جماليا يتلاءم مع ميولاته.

فإذا كان الحيوان همه إشباع رغباته البيولوجية والنفعية، فإن الإنسان يشبعها هو الآخر بإضافته إليها الطابع الجمالي. لذلك نجد فرنسيس بيكون يقول عن الفن أنه الإنسان مضاف إلى الطبيعة.

- وأخيرا إن الثقافة ليست امتداد إضافي فقط للطبيعة، بل إنها تضفي على الإنسان نفسه الذي أبدعها إنسانيته وتكسبه شخصيته، وبالرجوع إلى قص الطفل المتوحش الذي تربى مع الذئبة أو الطفلتان "Amala et Camala enfants loups" لأمكننا القول أن الإنسان بدون ثقافة لا يمكنه اكتساب الصفات الإنسانية التي تؤهله للاندماج والتكيف مع بيئته الاجتماعية.

وإذا لاحظنا اختلاف الناس في تصرفاتهم وسلوكاتهم فذلك راجع إلى اختلاف ثقافتهم وتنوعها.

- بذلك يجوز القول أن الثقافة ظاهرة تخص وحده دون الحيوان وبها استطاع أن يكمل عالمه الطبيعي ويصبغه بالصبغة الإنسانية.

لكن إذا نظرنا إلى المشكلة من زاوية أخرى لظهر لنا أن الثقافة هي ما يواجه به الإنسان الطبيعة.

أ/ إذا كانت البقعة الجغرافية تعد من طبيعة أولى، أمكننا القول أن الثقافة طبيعة ثانية. هذا ما يعني أن الطبيعة سابقة له وتؤثر عليه قبل أن يؤثر فيها، بقول في هذا الصدد أحد المفكرين غوسدروف "إن الطبيعة جزء من كينونتنا، وهنا تجدر الإشارةُ إلى الاختلاف القائم بين سكان الجنوب وسكان المناطق الباردة.

يقول ابن خلدون في المقدمة: "ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحرُّ على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم إلى أرواح أهل الإقليم الرابع ـأشدّ حرًّا فتكون أكثر تفشيًّا، فتكون أسرع فرحا وسرورًا وأكثر انبساطا..."

أما عن سكان المناطق الباردة فتراهم عكس ذلك يتميزون بالنشاط والفعالية والروح الجماعية والادخار وقت الحاجة، يقول ابن خلدون في ذلك "ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل العسكري في التلول الباردة كيف ترى أهلها مُطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب.,.."

- وقد يكون الوسط الثقافي كلك تأثيره في الطبيعة من خلال ما تم صنعه وإبداعه من أجل التكيف مع البقعة الجغرافية القاسية.

ومن مظاهر تكيف الإنسان مواجهة العوامل الطبيعية القاسية من برودة وحرارة وجبال وبحار. فبالثقافة خرق الإنسان ألغاز الطبيعة وتجاوزها.

إن ابتكار لمختلف الآلات ولجملة الأساليب التقنية وما توصل إليه من علوم وتطبيقاها ومعرفته بالقوانين التي تتحكم في الظواهر الطبيعية، جعله على الطبيعة ويتحكم فيها، ضمانا لبقائه واستقراره.

- لقد تمكن الإنسان بفضل مبتكراته أن يغير بعض ظروف البيئة ويقهر سلطانها ويدلّل صعوباتها فاستصلح الأراضي وغير مجاري الأنهار واستحدث وسائل الرش المحوري والزراعة البلاستيكية للزيادة في الإنتاج الزراعي وتحقيق الاكتفاء الذاتي.

- وأوجد اللقاح ضد الأمراض المعدية عند الحيوان أو النبات وحتى الإنسان ولا زال في صراع معها لعله يحقق مع ذلك الرفاهية والاستقرار. فأصبحت الثقافة عنده سلاح وقوة يواجه به الطبيعة وجبروتها. وتحقق له ما كان مستحيلا فأدرك القمر وحول العالم إلى قرية بواسطة الاتصال عن طريق وسائل القمر الاصطناعي.

- وتبر مواجهة الإنسان للطبيعة من خلال ما تمده الثقافة من قوات وقواعد ومعايير أخلاقية يستمدها من الشرائع والديانات التي يؤمن بها لأن الطبيعة الإنسانية حيوانية في أصلها وهي عبارة عن جملة من الغرائز العمياء لا تستقيم ولا تصبح إنسانية إلا في إطار بيئة ثقافية أضف غلى ذلك أن الطفل يولد مزود بقدرات واستعدادات طبيعية كامنة والبيئة الثقافية هي من تنميها وتغذيها أو تكبتها.

فالطفل يولد مزودا بقدرات الكلام كالفم واللسان والحنجرة... لكن المجتمع بثقافته يمده بلغة تساعده على التواصل مع غيره.

- ومن الأمور التي توحي بالمقابلة بين الطبيعة والثقافة سلوكاته تتأرجح بين البيولوجي والاجتماعي فمن بين الاستجابات التي يقدمها للمثيرات الخارجية أو الداخلية نجد أن بعضها يتعلق كليّة بطبيعته في حين أن البعض الآخر يتعلق بوصفه كائنا اجتماعيا" ولذلك فمن الصعوبة بمكان إيجاد الفاصل بينهما وهذا ما يجعلنا نتساءل هل يمكن اعتبار الثقافة طبيعة ثانية يواجه بها الطبيعة الأولى؟ يجيبنا كلود لفي ستروس "أن كل ما هو عام لدى الإنسان يعود إلى الطبيعة ويتميز بالتلقائية وأن كل ما يخضع للقاعدة ينتمي إلى الثقافة ويتسم بصفة النسبة والخصوصية"

وهذا ما يفسر أن بعض الناس يتفقون في الانتماء إلى بيئة جغرافية واحدة لكنهم يختلفون في اللغة وفي طرق الزراعة والتغذية والإسكان وفي قوانين تنظيم الزواج.

وبذلك يجوز القول أن الطبيعة تتميز بصفة العالمية لأنها قاسم مشترك بين الناس وتشمل كل الكائنات الإنسانية بينما تتسم الثقافة بالتنوع والنسبة. هكذا تكون العلاقة بينهما علاقة تضاد وتقابل.

فالدين انقذه من الخوف والعجز العقلي وقد ساعده الفن على الانقلاب من الواقع وقيوده.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الثقافة تتميز بالتنوع بينما تعد الطبيعة واحدة بمعنى أنها تمتاز بالوحدة والشمول.

**ب- بين الإضافة والمقابلة:**

إن النتيجة التي يمكن الخروج بها من خلال الآراء المتعارضة أي بين تلك التي تبرز بأن الثقافة هي إضافة للطبيعة والثقافة هي مواجهة لها، التكامل والتأرجح بين الإضافة والمقابلة فقد تكون الثقافة تارة إضافة وطورًا آخر تأتي في شكل مواجهة.

ففي قضية التغير الإيكولوجي بينت دراسة أقيمت بإحدى القرى السويسرية الجبلية في جبال الألب أن الظروف الإيكولوجية (البيئية) لها أهمية في حدوث التوازن بها.

أوضحت الدراسة أهمية العامل السكاني، فالاستقرار الكبير لسكانها أي لبعض العائلات القرابية، يرجع إلى القواعد التي تتحكم في وراثة الممتلكات المنتجة النادرة والتي كانت وراء انتشار الزواج الداخلي في القرية. ووضع قانون يقيد الهجرة مع منح مزايا المواطنة فقط للأحفاد في حفظ الذكور،وقد حدث وفيات الأطفال الرضع وكذلك تقاليد الأوربيين الثقافية الخاصة بتأخير الزواج وعدم الزواج بشكل متكرر وتوقيت الزواج بموت أو تقاعد الوالدين عن العمل... كل ذلك حدّ من الزيادة المفرطة في عدد السكان مما جعل الموارد المتاحة كافية لتأسيس بين ريفي جديد... هكذا نجد أن الوراثة قد شكلت علاقة تبادلية بين حجم الرضا المتاح والطاقة الإنتاجية للناس. في مقابل القيم الأخلاقية التي يدعمها دين الرومان الكاثوليك والتي تدين ممارسة الجنس قبل الزواج وتكريم العفة كل تلك العوامل سواء كانت طبيعية (إيكولوجية) أو ثقافية أدت إلى حدوث التوازن الإيكولوجي هناك وهذا ما يعزز فكرة التكامل بين الطبيعي والثقافي في الإنسان.

وهذا يعني كذلك أن المكتسب قد يساهم في إعداد ما هو طبيعي وقد يتشابك في العديد من الحالات الطبيعي والمكتسب.

ومن الصعوبات بمكان إيجاد الحد الفاصل بين الطبيعة والثقافة، بل هناك تكامل وتشابك بينهما.

**خصائص الثقافة**

**تمهيد**

**1/- ظاهرة إنسانية**

**2/- الثقافة ظاهرة مكتسبة**

**3/- الثقافة ظاهرة اجتماعية:**

**4/- الثقافة تسد حاجات الأفراد:**

**5/-الثقافة متغيرة:**

**6/- الثقافة متنوعة المضمون:**

**7/- ثقافة متشابهة الشكل:**

**8/- الثقافة نسبية**

**خصائص الثقافة**

**تمهيد:**

إن البحث عن خصائص الثقافة يجعلنا نطلع عن جملة الخصائص التي تتميز بها الثقافة التي من خلالها نتعرف عن ثرائها من جهة . و من جهة أخرى نطلع على ذلك التمايز و الاختلاف الذي يوجد بين الظاهرة الثقافية و الظاهرة البيولوجية و كذلك بين الظاهرة الاجتماعية نتيجة التداخل الحاصل بينها.

**1/- الثقافة ظاهرة إنسانية:**

لا شك أن ظاهرة التنوع بين الثقافات شيء ملموس، حيث أن كل مجتمع صاغ أنماط سلوك المجتمع الآخر لكن إمعان النظر في ذلك قد يبين لنا بعض السمات المشتركة بين هاتين الثقافتين، ولا شك أن وجود هذه الوحدة هو الذي يجعل من الممكن وجود علم الدراسة الثقافية.

- يتميز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى لقدرته على صنع الثقافة وتوارثها من جيل إلى جيل آخر.

ولما كانت المجتمعات تتمايز وتتباين في ثقافاتها عن بعضها البعض فإن هناك جانب كبير من التشابه يتمثل في جملة الخصائص التي تشترك في الثقافات الإنسانية منها:

**1/- ظاهرة إنسانية:** لقد عرف هيزجوفيتش الإنسانية بأنه حيوان مثقف أو مبدع للثقافة، فهي ظاهرة تخص الإنسان وتابعة له مهما كان مكان عيشه، وطريقة عيشه، فيكون هذا التعارف جامعا ومانعا ومتجاوزا لكل التعاريف التي قدمت في تعريف الإنسان لأن الثقافة تشمل جميع المعاني وتشترطها.

**2/- الثقافة ظاهرة مكتسبة:**

مما يعني أنها تتم عن طريق التعلم ولا تورث فطريا أو بيولوجيا. ولذلك إذا ما لاحظنا فترة التعلم عند الإنسان نجدها أطول بكثير مما عند الحيوان. فالإنسان نجده طوال حياته يتعلم إلى آخر يوم من حياته. بينما فترة التعلم عند الحيوان قصيرة، فالطير بمجرد ما تكبر أجنحته يطير والسمكة بمجرد ما تخرج من البيضة مباشرة.

فخاصية الاكتساب التي يتميز بها الإنسان جعلته يتجاوز الغريزة الغالبة على السلوك الحيواني.

فعن طريق التنشئة الاجتماعية يتمكن الإنسان من أن "يضيف مداركه كل يوم جديد يتعلمه ومع تعاظم عملية الاتصال الإنساني ومع التطور التكنولوجي صارت إمكانية التعلم الإنساني أوجب وأعظم من ذي قبل"

- ومهما كانت الثقافة من امتلاك الفرد إلا أنها تتجاوزه باعتبارها ظاهرة ما فوق فردية، إلا أن هذا يوقعنا أو يطرح مفارقة الثقافة وهي أنا نعيشها ونعيها كلنا في الغالب لا نشعر بهافهي تمارس علينا ضغطا وتلزمنا بإتباعها.

**3/- الثقافة ظاهرة اجتماعية:**

إذا كانت الثقافة ظاهرة إنسانية فهي بالدرجة الأولى تعتبر ظاهرة اجتماعية،ولا يمكننا الكلام عن ثقافة ما دون ارتباطها بجماعة ما.

وإذا كان الأنثروبولوجي يدرس سلوك الأفراد فإن الهدف من ذلك هو دراسته واستنتاجه لأنماط الثقافة ودراسة الفرد كشخصية متميزة هو موضوع علم النفس وليس موضوع الأنثروبولوجي

- ثم إن ارتباط الثقافة بجماعة ما على اعتبار أن لكل ظروفها التاريخية والطبيعة الخاصة بها. جعل من الثقافة ظاهرة تتميز بالنسبية من جهة ومن جهة أخرى بصفة العالمية المتأسية من الوجود الإنساني. هذا الوضع جعلنا نسجل المفارقة التالية الثقافة فهي تجمع صفة العالمية وصفة الخصوصية.

وتنقسم النظم الثقافية في المجتمع إلى ثلاثة أنواع:

1) العموميات 2) البدائل 3)الخصوصيات

**1) العموميات:** وهي تلك النظم الثقافية التي تفرض نفسها على الأفراد المجتمع. فاللغة في المجتمعات البدائية، ونظام العقوبات التي يعاقب على جريمة القتل والسرقات والاغتصاب (الزنا) من المحارم.

**2) البدائل:** وتلك النظم الثقافية التي يكون للفرد فيها حق الحرية في الاختيار أو الترك كنظام الزواج في الثقافة الإسلامية الذي يخول للمسلم حق الزواج بالمسلمة والكتابية وبني قريباته كبنت العم والخال....

**3) الخصوصيات:** وهي ما يميز جماعة ما عن غيرها من التزامها بنظام ثقافي معين فلكل فئة من المجتمع نظامها الثقافي الذي يميزها عن بقية الفئات الأخرى. فالأطباء وقد يميلون إلى استخدام بعض الكلمات الأجنبية والمتعلقة بتخصص الطب في أحاديثهم اليومية والأمر كذلك بالنسبة لفئة الفلاحين والصيادين وغيرها. فالخصوصيات في الواقع هي عوامل مفرقة في المجتمع ذلك راجع لتمايز كل جماعة وانطباعها بميزات معينة في حين فإن العموميات والبدائل تعد من العوامل التي تلعب دورًا هاما في تماسك فئات المجتمع.

ثم أن القول بأن الثقافة ظاهرة اجتماعية يعني أن هذه الأخيرة تمارس نوعا من الضغط إلى التسليم بوجود حد مشترك في الثقافة كالتشابه في عادات الجماعة التي تشكل ثقافة معطاة تعبر عن أسلوب حياته.

- وعن سؤال أيهما أسبق في الوجود الثقافة أم المجتمع؟

يمكن القول أنه من الصعوبة بمكان فك القائم بينهما لكن ما هو مسلم به أن هناك علاقة تكاملية بين المفهومين بحيث لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر يقول هيزجوفيتش:

"عندما ندرس الإنسان وأعماله فإنه يكون من الضروري التمايز بين الثقافة والمجتمع لإزالة الالتباس الحاصل بينهما.

فتكون الثقافة هي التعبير عن طريقة وأسلوب حياة شعب ما بينما المجتمع هو المجموع المنظم من مجموع الأفراد الطريقة التي يسلكونها تشكل وتكون ثقافنهم. فأسلوب الحياة وطريقة عيش مجتمع والتي تتضمن العادات والتقاليد والأعراف والأدوات والآلات كل الأشياء المادية والروحية التي وظفها واستخدمها للتكيف مع وسط طبيعي ما هي ما يطلق عليها ثقافة.

وهذا ما يتماشى مع قول دوركايم حينما يقول: حينما يتكلم ضميرنا فإن المجتمع هو الذي يتكلم فينا. بمعنى هو الذي يوحي لنا بالتصرف.

**4/- الثقافة تسد حاجات الأفراد:**

- مهمة الثقافة تكمن في إشباع حاجات الإنسان البيولوجية والنفسية والاجتماعية من مأكل وملبس ومأوى لكن الاختلاف يكمن في الأنماط الثقافية التي يتم بها إشباع هذه الحاجات.

أما **النفسية**: وإن كانت غير بادية فإنها صعبة التحديد ولكنها مع ذلك موجودة وتتمثل في إسعاد وإرضاء أغلبية أعضاء الثقافة.

وأخيرا الاجتماعية: والتي تظهر جليًا في الحاجة إلى التضامن والتعاون أثناء الشدة كظاهرة التويزة في المجتمع الجزائري.

وعملية الإشباع بهذه الطريقة تهدف إلى التقليل من الخلافات بين الأفراد وإعدادهم للمراكز الخاصة بهم داخل النسق الاجتماعي والتنسيق بين نشاطاتهم. وكل ذلك يكون بواسطة معايير وقيم تحكم وتوجه سلوك الأفراد داخل المجتمع.

**5/-الثقافة متغيرة:** إن التغير في ثقافة ما يعبر عن استمراريتها و حركيتها لكن هذا التغير لا يلغ بعض الثبات فيها.

- والتغير دليل على تطور ثقافة ما. لأن التوثق عن الحركية يعني انغلاق الثقافة على نفسها وبالتالي الموت. وقد يكون التغير بطيئا كما هو الشأن في المجتمعات البدائية، وقد يكون سريعا كما ف المجمعات الحداثية التي عرفت تغيرا جذريا نتيجة ثورتها على كل ما هو تقليدي وقديم، فعرفت بذلك الحداثة على أنها نهاية المرجعيات.

- والتغير الثقافي درجات فقد يتم تدريجيا وقد يكون شاملا كالغزو في الحروب أو الاندماج كاندماج المجتمع في مجتمع أكبر وظهور ثقافة جديدة نتيجة لانصهار الثقافات القديمة" وهي الثقافات التي انقرضت ثقافة الهنود الحمر في أمريكا وثقافات السكان الأصليين في أستراليا.

وما يلاحظ على تغير ثقافة، أن هذا الأخير يكون في العناصر المادية مقارنة بالعناصر الروحية.

يجدون حرجا في تغيير معتقداتهم وأفكارهم وقد يعود السبب ذلك إلى الطابع الحسي والمنفعي للجوانب المادية من الثقافة عكس الجوانب الروحية من الثقافة والتي تتسم بالطابع التجريدي وإدراكها يحتاج إلى جهد وعناء فكرين.

**6/- الثقافة متنوعة المضمون:**

إن التنوع في ثقافة الشعوب هي السمة الغالبة في ذلك، بحيث قد يصل هذا التنوع إلى حد التناقض فقد نجد ما يتم اعتقاده في مجتمع ما أنه الفضيلة بعينها يُعتبر جريمة في ثقافة أخرى. مثال ذلك أن ذبح البقرة عند المساعي من الأمور المباح وعند الهنود تعتبر جريمة وفي قبائل "موريا" بوسط الهند تباح العلاقات القبل الزواج بحيث تختار الفتاة صديقها أثناء طقوس معينة كالرقص مثلا وتبقى معه ثلاث أيام ثم تختار آخر وهكذا، بينما يعد هذا السلوك في الكثير من المجتمعات ومنها الإسلامية جريمة يعاقب عليها القانون والعرف.

وهذا التباين قد يمس أنماط أخرى من السلوك كعادات التغذية مثلا فقد وجد أن كثير من الشعوب تأكل الكلاب في حين نجد شعوب أخرى تقزز منه والتنوع قد يمس عادات اللباس والزينة. فسكان أستراليا الأصليين وهنود تيراديل فيجو Terra del fuego يسيرون شبه عراة، بينما نجد شعوب أخرى كشعب الباجندا في شرق إفريقيا يغطون أجسامهم بالملابس من الرقبة حتى القدمين وتتضمن الحلي طائفة متنوعة من الأشياء مثل الحلق ودلايات الأنف والشفتين والأشياء التي تعلق وتثبت في الشعر لتزيينه.

وقد يتساءل عن سر هذا الاختلاف والتنوع الثقافي رغم انتمائهم إلى نوع واحد؟

يعود سبب هذا التنوع إلى عدة عوامل منها:

**أ-** قدرة العقل اللا محدودة على الاختراع والإبداع في إيجاد حلول مختلفة ومتنوعة للمشكلة الواحدة.

**ب-** حجم الجماعة الإنسانية، فكلما كان الحجم كثيرًا كانت ظاهرة الإبداع والابتكار أكبر والعكس بالنسبة للجماعات الصغيرة أو البسيطة.

**ج-** للبيئة الجغرافية دورًا هاما في التنوع الثقافي، فالبيئة تقدم للإنسان، إمكانات تساعده على ابتكار وسائل وأدوات للتكيف معها، ولذلك فالوسائل المستخدمة بين سكان المناطق الباردة أو الجبلية تختلف عن سكان المناطق الصحراوية. فالإسكيمو استخدموا الكلاب والزلاجات لجر العربات بينما الإنسان الصحراوي اعتمد عل الجمال لقدرتها على تحمل الحرّ.

**د-** الاتصال الثقافي بين الجماعات: كلما كان الاتصال والاحتكاك بين الثقافات ساعد عن نقل سمات ثقافية جديدة.

والاتصال بين الشعوب قديما كان يتم عن طريق الحروب والهجرات والتجارة. فالشعوب المنفتحة تعرف تطورا سريعًا بينما تلك المنغلقة على نفسها تتصلب وتتحجر.

**ذ-** القيم والمعتقدات التي تؤمن بها المجتمعات البشرية دورًا هاما في التنوع الثقافي، فهناك يميز بين المجتمعات الوثنية والمجتمعات المنتمية إلى الأديان السماوية.

هذه بعض الأسباب التي كانت وراء الاختلاف والتنوع:

**7/- ثقافة متشابهة الشكل:**

من بين مفارقات الثقافة أنها متنوعة في المضمون والتنوع يعني الاختلاف، ومن جهة أخرى هناك حد أدنى من التشابه بين الثقافات، إذ تبين الدراسات التي أقيمت على الكثير من ثقافات الشعوب أن كل ثقافة تحتوي على القطاعات الثلاثة وهي القطاع المادي والاجتماعي والقطاع الفكري أو الرمزي.

فالمادي يمثل الأدوات والآلات والمنازل والملبس.

والاجتماعي: يهتم بالنظم الاقتصادية والسياسية والقانونية والعائلي التي تعمل على ضبط سلوك الأفراد مع بعضهم البعض داخل مجتمعاتهم .

أما الرمزي يخص: الجانب الفكري أو الروحي وجملة المعتقدات والمعارف والدين والقيم والفنون والأخلاق واللغة.

والشيء الذي ينبغي أن نركز عليه في عملية التشابه هو الجانب الشكلي أو الخارجي وليس المضمون، ففي كل مجتمع يوجد نظام عائلي سواء كان هذا النظام يخص العائلة النووية أو العائلة الكبيرة أو الأسرة المركبة.

وهذا ما يعرف بالأنماط الثقافية العالمية وهو الحد الأدنى للثقافات مهما كانت في سلم الترتيب الأدنى أو الأعلى.

**8/- الثقافة نسبية:** إن كلمة نسبي يقابلها كلمة مطلقة.

ومنها قولنا أن المعرفة العلمية نسبية. والمقصود بنسبة المعرف أن المعرف الإنسانية نسبة بين الذات العارفة والموضوع وأن العقل الإنساني لا يحيط بكل شيء وإذا أحاط ببعض جوانب الأشياء صبّها في قوالبه الخاصة..وهذا يعني قصور العقل البشري ومحدوديته في إدراك كل شيء إدراكا كليًا وهذا يعني أن المنطق الإنساني يختلف عن المنطق الإلهي لأن هناك أشياء تخرج عن مجال إدراك الإنسان.

ويفهم من تحديد النسبية هنا كذلك القول بالذاتية وهذا ما أشار إليه كذلك جون ستوارت مل في تحديده للنسبية يقول:

أ/- أنا لا أعرف الشيء إلا من جهة ما هو متمايز عن غيره من الأشياء

ب/- ولا نعرف الطبيعة إلا بواسطة أحوالنا الشعورية. ولهذا القول الثاني نتيجتان، الأولى هي إرجاع الأشياء إلى الأحوال الشعورية والثانية هي القول بوجود شيء في ذاته لا يمكن أن يكون بطبيعته موضوع معرفة عقلية أو تجريبية فيخرج بذلك عن نطاق العقل الإنساني وقوالبه وهذا العقل لا يدرك الأشياء إلا من خلال معارضتها بأشياء أخرى.

- أما بخصوص النسبية الثقافية حسب هذا التحديد تعني إصباغ الأشياء بالصبغة الذاتية الشعورية فتصبح الثقافة تابعة لأهلها أي أنها مرتبطة بجماعة معينة.

وثانيا أن ثقافة مجتمع مهما بلغت من الرقي والتقدم في أعل المراتب تبقى ناقصة ومحدودة ولا يمكنها أن تحيط بكل شيء. فمعرفتها قد تتعمق في جوانب وقد تهمل جوانب أخرى وهذا ما أشار إليه ميشال ليريس عندما قال: "إن ثقافة الشعوب المختلفة تعكس أساس ماضيها الثقافي، وتتباين فيما بينها في حدد تباين تجارب كل منها، والمكتسب عند الشعوب أهم من الفطري، شأنهم شأن الأفراد، ومن تنوع التجارب تتنوع المكتسبات، والعالم تسكنه الآن جماعات بشرية تختلف فيما بينها ثقافيا اختلافا كبيرا ويمكن اعتبار بعض الاهتمامات السائدة بينها بمثابة النقطة البؤرية في ثقافتها وما يهتم به مجتمع ويعتبره أساسيا قد يختلف تماما عما يبؤره مجتمع آخر مكانة أولى." فالثقافات تتمايز فيما بينها من حيث الإبداع فقد تتفوق في جوانب و تهمل أخرى، فاليونان مثلا أعطوا الأولوية للجوانب العقلية والتأملية فكان نبوغهم في الفلسفة والرياضيات وأهملوا الماديات فجاء نصيبهم من العلوم التطبيقية كالبيولوجيا والطب ضعيفا وقد يكون هذا سببا في تأخر علوم البيولوجيا والعلوم الأخرى ذات الطابع التطبيقي .

**مظاهر الثقافة:**

**تميد**

**1- الدين و الثقافة**

**- تعريف الدين**

**- الدين والإيديولوجية الدينية:**

**- أهمية الدين ودوره:**

**تمهيد:**

يعتبر الدين مظهر من مظاهر الثقافة و هو عبارة عن تلك العقيدة التي تتمثل في تلك الرابطة الروحية التي تصل العبد بالمعبود، و يفهم من هذا التعريف ليس فقط الدين أو العقيدة المنزلة ممثلة في اليهودية والمسيحية و الإسلام . بل كل الديانات الوضعية التي تخيلها الإنسان كالوثنية و المجوسية و البوذية. و لما كان الدين أكثر الظواهر التصاقا بالإنسان نوع الإنسان من الطقوس و الممارسات الدينية و الثقافية المختلفة. لذلك فمن الخطأ الحديث عن الثقافة بدون دين .كما أن المحافظة على الدين بدون الثقافة إجحاف في حقها .و لذلك نجد أن العلاقة بين الثقافة و الدين تعد من المسائل المثيرة للجدل بسبب التداخل بينهما في حياة الإنسان. لهذا السبب سنحاول طرح هذه القضية بعد تحديد مفهوم الدين.

**- الدين:** هو أحد مظاهر الثقافة يمثل عند الإنسان ميلا طبيعيا، والمقصود بهذا أن ثمة وراء شعور الإنسان بالضعف، قوة تتجاوزه.

فهذا الشعور مغروس في الإنسان بطبعه أما الديانات التي جاء بها الأنبياء فإنها في اعتقادنا لم تخلق العقيدة خلقا بقدر ما صححتها ووجهتها نحو الصواب.

- ثم إن القصد من الدين ليس تلك العلاقة الروحية الوحدانية التي تربط الإنسان بما هو مقدس ومطلق وإنما القصد منه كذلك تجليه النسبي أو ما يعرف (بتنسيب المطلق) في الممارسات الثقافية: اجتماعية وسياسية واقتصادية وفنية... حتى تلبس هذه الأخيرة لباس الشرعية والقداسة، لذلك فإنه كثيرا ما يعتبر أداة إما يساهم بها في تبرير الواقع وتكريسه وتجميده أو العمل على تطويره وتغييره وقبل الخوض في قضية الدين وعلاقته بالثقافة، ينبغي تحديد مفهوم الدين من حيث اللغة والاصطلاح.

من المتعارف عليه عند العلماء والمفكرين والدارسين أن لكل كلمة تاريخ ولمعرفة دلالات هذه الكلمة أو المصطلح ينبغي الرجوع إلى تاريخه وإلى الثقافات التي تناولته للتعرف على مختلف الدلالات التي يتضمنها.

**-الدين:** لغة واصطلاحًا: فكلمة دين في لسان العرب لابن منظور نجد المصطلح يأخذ معاني عدة تشترك كلها في معنى الذل والخضوع ولطاعة المطلقة لقوة.. أو عقيدة أو نظام ما. فالدين: الجزء والمكافأة وقد يعني الطاعة (دُنِتهُ ودنتُ له) والدّين، الإسلام وقد دُنتُ به. والدّين من هذا إنما هو طاعته والتعبد له وأدانه دينا أي أذله واستعبده.

**والدين :** الذل، والمدين: العبد، ودنته أدينه دنيا، سُسته ودنته ملكته، والدين السلطان والدين: الورع، والدّين القهر، والدّين: المعصية، والدين: الطاعة."

أما في اللغة الفرنسية فإن كلمة دين Religion جاءت من الكلمة اللاتينية Religio التي تعني الحيرة والوهم والتشكيك والتدقيق في الشيء ومن معانيها الشعور والاعتقاد والعبادة الدينية، القداسة، التضحية. وقد تعود كلمة Religionمشتقة من الكلمة اللاتينية ligare, religar وهي (العلاقة أو الرابطة)

- والتي هي من نفس جذر كلمة obligare التي تعني الروابط أو الإلزامات الناجمة عن الممارسات الدينية أو أماكن التجمعات بين الناس والآلهة أو بين الناس بعضهم البعض وقد جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن

الدين: هو العادة، والحال والسيرة والحكم والطاعة والجزاء ومنه مالك يوم الدين، كما تدين تدان.

- إذن انطلاقا من هذا التحديد اللغوي لكلمة دين "يمكن القول أنها تتراوح بين معنيين فهي من جهة تعني الذل والخضوع والولاء والقداسة، ومن جهة أخرى العلاقة أو الرابطة أو العلاقة الناجمة عن هذا الاعتقاد والشعور سواء بين الإنسان في علاقته بربّه أو في علاقة الإنسان مع غيره من الناس.

أما اصطلاحا:

**1/- عند الفلاسفة:**

يطلق على وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير، والفرق بين الدين والملّة والمذهب هي أن:

- الشريعة من حيث أنها مطاعة تسمى دينا ومن حيث يرجع لها تسمى مذهبا

- ومن حيث أنها جامعة تسمى ملّة.

- وقبل الفرق بين الدين والملّة والمذهب.

- هو أن الدين منسوب إلى الله، والملّة منسوبة إلى الرسول والمذهب منسوب إلى المجتهد.

وكثيرا ما تستعمل هذه المصطلحات بعضها مكان بعض. ويطلق لفظ الدين على الشريعة وعلى الستة وأما شرعه الله لعباده من السنن والأحكام.

**2- في علم النفس:** يطلق عليه بالدين الداخلي: وهو تلك العلاقة المباشرة والفردية للنفس الإنسانية مع الله أو يقصد بها الذات الإلهية أو تلك القوة الإلهية التي تفرض على المؤمنين الإيمان بوجود قوة إلهية متعالية وغير متناهية وتبرز نهاية الإنسان ومحدوديته. هذا الإيمان الذي يترجم إلى ولاء داخلي وعبادة وحب وإلى طاعة وخشوع وتذلل احتراما ومراعاة له.

وهذا ما عبر عنه جميل صليبا كذلك عندما اعتبر الدين: جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس من جراء حبها لله وعبادته إياه وطاعتها لأوامره.

هذا على المستوى النفسي، أما على المستوى الاجتماعي يعرف:

في علم الاجتماع: على أنه الدين الخارجي: وهو مؤسسة اجتماعية الهدف منها تكريس عبادة الله من خلال جملة من الطقوس الاحتفالية والتعبدية المحددة، تتضمن نوعان من التدرج والتراتبية وتضمن المداومة على مجموعة من الطقوس والمعتقدات المتعارف عليها من قبل المخلصين لهذه العقيدة وكنتيجة لذلك فإنها تعمل على ترسيخ المبادئ والمعايير المتبعة عن السلوكات

فالدين في المنظور الاجتماعي يشكل مؤسسية اجتماعية تتكون من مجموعة من الأفراد الذين يتحلون بجملة من الصفات:

- قبولهم الأحكام المشتركة وقيامهم ببعض المشاعر.

- أيمانهم بقيم مطلقة وحرصهم على تأكيد هذا الإيمان وحفظه.

- اعتقادهم أن الإنسان متصل بقوة روحية أعلى منه مفارقة لهذا العالم.

هكذا نجد الدين يتراوح بين الاعتقاد في الممارسة الجماعية التي تفرض مجموعة من الطقوس المتبعة.

- ولا يمكننا الإحاطة بمفهوم الدين دون التعرض إلى الطقوس المرتبطة به.

إن محاولة تحديد مفهوم دقيق للطقس يضعنا أمام صعوبة كبيرة نظرًا للتعاريف التي قدمتها مختلف المعاجم (الفلسفية، والاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجية والدينية)والتي تتميز بالتنوع، الأمر الذي يصعب التوفيق بينها. كما أن المجالات التي تتدخل فيها الطقوس متنوعة ومعقدة. ثم إن فصل مفهوم الطقس عن العديد من المفاهيم الأخرى يكون صعبا رغم أنه ضروري، وتتمثل هذه المفاهيم في العادات والتقاليد والممارسات ولعل ما أشار إليه جون ميزوناق Jean Maisonneuve في كتابه السلوكات الطقوسية حيث يشير في مقدمة كتابه إلى أنه مصطلح الطقس يحمل معنيين أحدهما خاص يدل على الممارسة أو الحفل الديني والآخر عام يدل على العادة والتقليد.

- ومن الناحية اللغوية يشير القاموس الجديد للطلاب الطقس: "هو الطريقة وغلب على الطريقة الدينية، بمعنى النظام والترتيب وإقامة الشعائر..."

وبهذا يصبح الطقس الأسلوب الذي ترتب السلوكات الدينية والتي عادة ما تكون احتفالية بسبب ما يتخللها من ممارسات يسيطر عليها الطابع التنظيمي.

ما يمكن ملاحظته على هذا التعريف أنه يبقى ناقصا لا ينطبق على الطقوس بمفهومها الحديث، إذ نجد أنها يمكن أن تكون دينية كالصلاة أو دنيوية كالتشريعات أو جماعية كالأعياد الوطنية أو فردية كبعض الطقوس الجسدية.

كما يمكن أن يتسع معناها ليشمل السحر والشعوذة.

- أما المعجم الفرنسي فيرى أن أصل الكلمة يعود إلى اللاتينية "Ritus" تعني الاستعمال المقدس، ففي الدين يعني الطقس مجموع الحركات التي نمارسها في ظرف معين حسب الاستعمال الذي ينص عليه أو ذاك الدين.

- الملاحظ أن هذا التعريف لا يبتعد كثيرا عن التعريف الذي قدمه المعجم العربي المذكور سابقا، والذي حصر الطقس في السلوكات الدينية وإن كان قد أشار في نهاية تعريفه للطقس على أنه "استعمال يتم حسب عادة أو نظام محدد (احتفال)

انطلاقا من هذا التعريف يمكن أن نغير عددا من الخصائص والصفات الجوهرية للطقوس.

أ- إنها سلوكات نمطية ذات طابع تكراري، فالطقس بشكل ثابت نسبيا ومتكرر أو يتوقع أن يتكرر.

ب- تجسد من خلال سلوكات احتفالية جماعية وفردية خاضعة لبعض القواعد ومن هنا فهي رمزية وفي بعض الأحيان تكون مؤسسة أو مفروضة من قبل المجتمع، وهذا ما أكد عليه الباحثون فرنسوا غرزل ومن معه في معرض شرحهم لمفهوم الطقس إذ يشيرون إلى أربعة صفات أساسية هي:

1- ليست ذات أهداف نفعية فهي مجرد رموز.

2- احتفالية حيث أنها تمارس من خلال مجموعة من الأنشطة لإنسانية

3- أنها همزة وصل مع الكائنات الماورائية إذ أنها لا تلتزم بقواعد العقل والمنطق.

4- إنها مرتبطة بالأساطير، فالأسطورة هي بمثابة التعليق أو المناقشة أو التفسير للطقوس.

وهذا ما أكده Vandelew إذ يقول: "إن الطقوس هي أساطير تتحرك، لأن الأسطورة هي مؤسسة الفعل المقدس فهي تسبقه بقاءه والقيام بأي عمل هو تجديد لتجربته الأولى.بعد هذا التحديد العام لمفهوم الطقس يمكن لنا أن نتناوله من خلال مجموعة من المقاربات العلمية، ففي الأنتولوجيا وعلم الاجتماع تدل الطقوس حسب رأي جون ميزوناف على مجموعة من الممارسات المفروضة أو الممنوعة المرتبطة بالاعتقادات السحرية و\*/ أـو الدينية وبالحفلات وهذا حسب التفرعات الثنائية والدنيوي وللطاهر والنجس."

أما في علم النفس الاجتماعي فنجد أن الباحثين يحاولون أثناء تعريفهم للطقس التركيز على العلاقة التفاعلية للطقس حيث تتحول الطقوس إلى مظاهر للحياة اليومية تتعلق بالمعنى المعيش وبشعور الفاعلين بسلوكاتهم.

وبهذا المعنى تصبح الطقوس شاملة لكل نواحي الحياة لدرجة أن حياة الفرد مسيرة بمجموعة من الطقوس المتخصصة كطقوس الغسل واللباس والمشي والأكل والنوم...

أما التحليل النفسي ومع اعتراف هذا الأخير بالوظيفة الجماعية، للطقس إلا أنه يركز على الوظائف الفردية الخاصة كالإجراءات التي يتبناها الفرد في ظل الوضعيات العادية المتأثرة بإكراه التكرار والوساوس التسلطية العصابية.

وبهذا نجد أن التحليل النفسي يسعى إلى إيجاد تفسيرات للحالات المرضية في السلوكات اليومية للفرد، والتي ترتبط بطريقة استجابة الفرد للمثيرات الخارجية وطريقة تنظيمه لحياته، فعندما يصل التنظيم إلى درجة التصلب نتيجة التكرار المستمر والممارسة

الدائمة فإنه لا يسمح للفرد الذي يتبناه أن يحيد عنه، فعندئذ يتحول السلوك إلى طقس وربما يتحول الالتزام به غلى حالة مرضية.

فإذا كانت هذه هي وجهة نظر التحليل النفسي للطقوس والتي يمكن القول أنها تحيلنا إلى نوع من السلبية، فإن البنيويين ينظرون إليها نظرة إيجابية لما تقدمه من خدمة للإنسان "فالطقوس تعكس نظاما اجتماعيا هدفه التقليص من قلق الإنسان في مواجهته لمشاكل الحياة" ومن ثمة نستطيع القول أن الطقوس الجنائزية يمكن أن يكون لها حسب رأي الوظيفيين هدف وظيفي يتمثل في مساعدة الإنسان على التكيف أة إعادة النظام إلى الوضع غير المنظم الذي تخلقه حادثة الموت.

كما أنها يمكن أن تكون على حد رأي الأنثروبولوجيين المتأثرين بالتحليل النفسي أمثال رهايم "Reheim" وسائل رمزية لحل مشاكل العلاقات بين الأفراد والأجيال المختلفة.

أما في علم الأخلاق والايتولوجيا فيتحول اهتمام الباحثين إلى ما يمكن تسميته بالتنشئة الطقوسية أي تربية أفراد المجتمع على "الالتزام بالطقوس وتكييف أنماط السلوك الفردية والجماعية معها (الطقوس)". وهذا ما يظهر من خلال سلوكات الإغواء أو سلوكات التخويف أو الإخجال.

وأخيرا الأنثروبولوجيا اهتمت أكثر بتصنيف الطقوس حي أن جيمس فرايز James Frazer ولفي بريل Levy Bruhle وHerbert وm Mauss قد وضعوا تصنيفات والطقس السحري أو الديني، الطقس الفردي أو الجماعي، الطقس الاحتفالي أو القرباني"

عندما نريد أن نحوصل كل ما سبق لا نستطيع إلا العودة إلى التعريف الذي قدمه جون ميزوناف والذي اعتبره جامعا مانعا للطقوس إذ يقول: "إنه عبارة عن نسق مرمز للممارسات تحت شروط محددة للمكان والزمان ذي معنى معيش وقيمة رمزية بالنسبة للفاعلين والمشاهدين والذي يتطلب وجود الجسد إضافة إلى نوع من العلاقة مع المقدس".

إن الملفت للانتباه في هذا التعريف هو اشتراط حضور الجسد والطابع الرمزي للطقس، هذا ما نجده بالفعل في كل سلوك طقوسي إذ نجد أن كل الممارسات الطقوسية تتم عبر الجسد والأهداف رمزية محددة ومنسجمة مع الظرف الذي مورست فيه، أضف إلى ذلك العلاقة التي توجد بين الطقس والمقدس. وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة التحذير من اختزال مفهوم الطقس وجعله مساويا لمفهوم الدين خاصة في العصر الحالي إذ أن الطقس قد يتعدى الحياة الدينية ليشمل كل الحياة اجتماعيا، سياسيا واقتصاديا...، وهذا ما أشار إليه M.Douglas إذ يقول: "إننا قد أصبحنا في وضع قد حلت فيه الطقوس والشعائر محل الدين في معظم الأنثروبولوجية". ومن هذا يجب أن نميز أثناء الاستعمال بين ما هو طقوسي وما هو ديني، وهذا حتى نتجنب الاستخدام الضيق للمصطلح ونوظفه أحسن توظيف.

- بعد هذا التحديد للدين والطقوس المتعلقة به يمكننا الإشارة إلى أن هناك فرق بين الدين وبين الإديولوجيا الدينية.

**الدين والإيديولوجية الدينية:**

إذا كان الدين: مجموعة من التعاليم التي وردت في المصادر الدينية المعتمدة والتي تتعلق بعلاقة العبد بربه وبنفسه وبالآخرين... والتي تتراوح بين ما هو ثابت من أحكام وبين ما يقبل التغيير، بتغير عادات الناس وأعرافهم.

أما الإيديولوجية الدينية فهي جملة الأفهام والتصورات التي يقدمها الناس للدين في عصر من العصور، بحيث يخضع الفهم لمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ولهذا كثيرًا ما يحدث تباعد بين الدين كتعاليم خالصة وبين الإديولوجيا الدينية كمحاولة لتقديم فهم جديد للدين. فيخضع لجملة من التحولات الاجتماعية والتاريخية والثقافية لمجتمع من المجتمعات. وهذا يعني أن الإديولوجيا قد تأتي مخالفة، فهي ليست بالضرورة مطابقة للتعاليم الدينية الخالصة. لتأكيد هذا الكلام فإن التاريخ ينبئنا بما حدث من خلافات وصراعات بين مختلف الطوائف الاجتماعية رغم وجود الرابط الديني المشترك بينهما، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى مختلف الأفهام وحول الدين تقدمه الطوائف لتجد نفسها تبريرا شرعيا مستمدا من الدين.

إن الدين بهذا المعنى يصبح مرادفا للإديولوجيا، التي تعد عبارة عن الأفهام والمشاريع الإنسانية التي يقدمها الإنسان لهذا المطلق، وبعبارة أخرى هي محاولة لتنسيب هذا المطلق (جعله نسبيا) حتى يرفع النسبي إلى مستوى المطلق فيعطي شرعية التدريس.

- كل هذا جعل من "الدين الشكل الذي كانت وما تزال تتخذه وتتسلح به العديد من الصراعات السياسية والاجتماعية طوال التاريخ البشري".

ولتوضيح هذه ال(فكرة أكثر نستدل إلى رأي علي شريعتي الذي يقول في إحدى مقالاته: سألني أحد رفاق الدرب: ما هو برأيك أهم حدث وأسمى إنجاز استطعنا تحقيقه خلال السنوات الماضية؟، فأجبته بكلمة واحدة، هو تحويل الإسلام من ثقافة إلى إيديولوجيا".

- يقول شريعتي في تحديد الإديولوجيا:

هي عبارة عن عقيدة ومعرفة وهي بالمعنى الاصطلاحي رؤية وعي خاصان يتوفر عليهما الإنسان فيما يتصل بنفسه ومكانته الطبقية ومنزلته الاجتماعية وواقعه الوطني فيما ستصل بنفسه ومكانته الطبقية ومنزلته الاجتماعية التي ينتمي إليه، وهي المسوغة لهذه الأمور والتي ترسم له مسؤولياته وحلوله وتوجهاته ومواقفه ومبادئه وأحكامه. وتدفعه بالتالي إلى الإيمان بأخلاق وسلوك ومنظومة قيم خاصة... فتجيب عن الأسئلة: كيف تكون؟

وماذا تفعل؟ وماذا ينبغي فعله؟ وكيف يجب أن تكون؟..."

- إن شريعتي يحاول من خلال هذا القول اختزال الدين في الإديولوجيا وهي إديولوجية المقاومة والثورة، ويطمس بذلك الوظيفة المحورية للدين، فالدين أرحب وأوسع من ذلك، و الإديولوجيا هي مظهر وتعبير اجتماعي للدين.

- إن تحويل الدين إلى إديولوجيا معناه اختزالا الإنسان في بعد واحد، والروح في القانون والعقيدة في الثورة والله في الإنسان والإلهي في البشري والسماء في الأرض، والغيب في الشهادة والميتافيزيقا في الطبيعة والآخرة في الدنيا، والروح في الجسد والرمزي في الحرفي والرؤيوي في المحسوس، والمعاد في المعاش، والديني في الدنيوي، فتختلط الحدود بينهما ويجري تديين الدنيوي وتعميم الفهم الديني لكافة حقول المعارف البشرية وتديين المعرفة...

- كل دين يتجسد في تمثلات اجتماعية تعبر عن بنية المجتمع وتتلون بما يحفل به من ثقافة وتقاليد وأعراف وأنماط سلوك ولا يمكن أن يكون الدين خالصًا وبريئا من التمثلات الإيديولوجية.

الدين ستشكل في إطار البنية الاجتماعية، فإن كانت تسلطية، قمعية يأخذ شكلا تسلطيا قمعيًا . وإن كانت اختلافية تعددية حوارية يأخذ شكلا اختلافيا تعدديا حواريا... هذا الفهم سيقضي إلى إهدار مهمة الدين إرواء الضمأ الأنوطولوجي البشري للمعني، وطمس أثر المقدس في إلهام المتدين الخبرة الروحية وتوليد وصيرورة التجربة.

- إن البيئة الاجتماعية الثقافية هي التي تنتج تصورا للإله قمعيا فيما تنتج البيئة الاجتماعية الإنسانية تصورا للإله شفيقا شفافا روحيا وتتحول إلى خاصة متتالية لنشأة وتطور لاهوت الشفقة وما أحوج مجتمعاتنا إلى لاهوت الشفقة والتسامح والعفو...

**أهمية الدين ودوره:**

تتجلى أمية الدين في كونه عاملا مساعدا على خلق ثقافة مشتركة بين شعوب متعددة الثقافات، فالمسيحية كانت وراء ثقافة تشترك فيها الكثير من العناصر. فقد "تتدخل في عملية التكامل الأوروبية. واليوم إن كان على صعيد الاتحاد الأوروبي، أم على صعيد المجلس الأوربي، يصر أشخاص عديدون على أهمية الإرث الديني في الهوية الحضارية في أوربا". وغالبا ما يقصدون بالدين، الديانات التوحدية (اليهودية، المسيحية والإسلام) لأن مشكلة الصراع بين الدين والدولة ظهرت مع هذه الديانات التي جاءت في الأصل لمحاربة والاستعباد المسلط من قبل الدولة، فسبب هذا النزاع كامن في أن الدين التوحدي قد نشأ بالأساس في الصراع ضد الدولة العبودية التي كانت قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من فسادها وانحطاطها، فتحولت إلى دولة قهرية.

إلى جانب عملية البناء والوحدة التي يحققها قد يكون أداة هدم تستخدم في درء ومعارضة الأنظمة الكليانية مما يدفع به إلى أن يطرح نفسه كقوة تعمل على إزالة واقتلاع الاستلاب بأنواعه. والإسلام الأصولي كديانة كثيرا ما تنشر في مختلف البلدان كاعتراض اجتماعي وسياسي على الأنظمة القائمة.

وفي كثير من الأحيان، يتم اللجوء إلى الدين كطرح بديل بعد حدوث الأزمات السياسية. فقد "ترافق هذه الأخيرة دائما أزمات ذات طابع ديني تطهيري وسبب ذلك أن الإيديولوجيا المطالبة بالعدالة الاجتماعية التي تؤسس جوهريا على القيم الدينية بإمكانها حشد أقوى الحركات السياسية التي تتوصل إلى فلب العلاقات الحاكمة وإلى إقامة الأنظمة الجديدة.

ثم إن الديني في حد ذاته قد يتضمن السياسي، كون الديني ينتج تمثلا للسلطة من خلال النقل الطقوسي المعقلن لمجموع المسلمات التي تشكل منها القناعات، أو من خلال تصور التاريخ الذي يغذي الآمال أو ينشد الاندماج في نسق ترتبي، أو تمثلا للهوية والغيرية كحب الآخر أو الحذر منه.

إن مثل هذه المعطيات بإمكانها أن تساعد على فهم الانحرافات وحالات العنف الممكنة الوقوع على الدوام. والأديان على اختلافها قد تصير عنيفة إذا وقفت وراء ثلاثة أنواع من الأثبات.

إن مثل هذه المعطيات بإمكانها أن تساعد على فهم الانحرافات وحالات العنف الممكنة الوقوع على الدوام. والأديان على اختلافها قد تصير عنيفة إذا وقفت وراء ثلاثة أنواع من الإثبات الاجتماعية والسياسية.

- إذا اعتبرت أنها المالكة الوحيدة للحقيقة وبالتالي على أي وضع اجتماعي أو سياسي مقصية في ذلك الآخر المختلف عنها.

- إذا ساد الاعتقاد أنها تمثل مصدر الشرعية السياسية والأخلاقية الوحيدة.

- وعندما تتماثل مع برنامج سياسي يتم الخلط وعدم الفصل في التاريخ بين ما زماني بشري وما هو ديني إلهي يتطلع إليه كل المؤمنون.

وقد يؤدي الدين دورا هاما في تشكيل الديمقراطية وتطويرها. يذكر ألكسيس دو توكفيل A.Tockvill جملة من الملاحظات من خلال ملاحظات للمجتمع الأمريكي بوجود حيوية بنبة كبيرة وهنا نجده يطرح فكرة جديدة ومناقضة لتلك التي تعتقد أن انبثاق الديمقراطية في المجتمعات العصرية عامل أساس في تراجع الدين.

فإذا كانت النظرة الكلاسيكية ترى أن هناك تعارضا بين العصرنة والدين على اعتبار أن هذا الأخير حجرة عثرة وعقبة أمام الديمقراطية، فإن نظرة دو توكفيل تبرز حدوث تعايش وتناغم بين الدين والديمقراطية (الحرية)، بين التقليد والحداثة، ولهذا، فقد بدا له الدين عامل دفع وحيوية ساعد على إنعاش الديمقراطية في أمريكا، بحيث تظهر هذه الروح والحيوية كبديل للفردانية ولتساوي الأفراد أمام الظروف الاجتماعية التي تسود المجتمع الأمريكي، فحسب توكفيل أن الدين يعلم المسؤولية الاجتماعية ويعوض عن الفردانية. فهو ضروري اجتماعيا.

هكذا يكون الدين واحدا من العوامل الرئيسية والتي تعمل على تنامي الروح الجماعية ويدفع إلى نوع من التضامن، خلافا للنظرة التي ترى أن العصرنة تؤدي إلى تراجع لدين وزواله.

قد يخطئ من يعتقد أن الماركسية اتخذت من الدين (كعقيدة) موقفا معاديا، فللماركسية نظرتان مختلفتان.

\* الأولى غير معادية والتي تنظر إلى الدين على أنه ظاهرة موضوعية تفرض نفسها على الجميع لأنه من مكونات الوعي الاجتماعي لشعب من الشعوب. فالماركسية "تنظر إلى الدين من حيث كونه –وعيا اجتماعيا- يكون قادرا في ظل ظروف محددة وبمعطيات محددة على أن يلعب دورا إيجابيا هاما في حركة تحرير الإنسان من الاستغلال".من خلال هذه النظرة الإيجابية تظهر الماركسية أهمية الدين في عملية التغيير الاجتماعي، رابطة فعاليته في مستوى نعين من التطور من نمو الوعي الاجتماعي.

\* أما النظرة الثانية والتي تنظر إلى الدين نظرة معادية تعتقد أن الدور الإيجابي الذي كان يقدمه قد "يتلاشى مع نمو الوعي الطبقي الذي يحول بين جماعات تخضع للاستغلال والاضطهاد، فتتشبت بدين جديد يخالف ديانة الحكام وتتخذه محورا لنضالها وخلاصها، بين جماعات متميزة طبقيا تنتمي جميعا إلى ذات الدين."

بناء على الفهم، يمكن القول أن الدين مقدس قد يوظف إما تحرير الإنسان من الظلم والاستعباد أو كتبرير لوضع اجتماعي سياسي استبدادي من خلال استغلال شعاراته في تغيب الوعي الاجتماعي الطبقي لشعب ما.

إن للدين تأثير كبير على مصير الشعوب والمجتمعات وطرق عملها وإلا لما أصبحت حاجة غلى العقيدة الدينية، فبإمكان هذه الأخيرة أن تدفع المجتمع إلى التطور والنمو مثل ما يذهب إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي ربط تطور كل حضارة بفكرة دينية تعمل على انبلاجها ودفعها إلى الأمام. وفي مقابل ذلك، قد يكون للعقيدة أثارا وخيمة على المجتمعات. فقد تؤدي إلى أفاق مسدودة مثلما حدث للاتحاد السوفياتي إذ لازال يجني إلى اليوم آثار هذا الانسداد.

ثم إن الدين أو العقيدة وحدها غير كافية، دون توفر الشروط المادية. فقد كانت العقيدة التوحيدية بمثابة ثورة روحية عملت على قلب تصورات الإنسان للعالم وللكون والتاريخ والمجتمع. فكانت أساس نمط ديني جديد في قيمه وعقائده وممارساته وطقوسه وآثاره على المجتمع كحقيقة كلية"ّ.

ولا يمكن للديانات الوضعية أن تخرج من دائرة الديانات التوحيدية فقد شكلت، "التربية العقلية الروحية التي تقوم عليها وتغذيها الأديان الآسيوية حضارة كبرى لا تزال قائمة حتى الآن وليست أقل قيمة من حضارتنا العصرية"

**:الثقافة والشخصية:**

**تمهيد:**

**1/- تحديد مفهوم الشخصية**

**2/- علاقة الثقافة بالشخصية**

1. **تأثير الثقافة في الشخصية**
2. **تأثير الشخصية ف الثقافة**

**الثقافة والشخصية:**

**تمهيد:**

- إذا كانت الثقافة من أهم ميزاتها الشمولية وتنميط السلوك الإنساني فإن الشخصية عكس ذلك تتميز بخاصية التفرد وتخصيص السلوك ولكن بالرغم من هذه المفارقة القائمة بينهما فإن العلاقة بينهما تبقى قائمة وضرورية. بحيث يشترط أحدهما وجود الآخر.

وقبل الخوض في تحديد العلاقة بينهما والمتمثلة في قضية التأثير والتأثر. ينبغي تحدد أول مفهوم الشخصية، في حين أن مفهوم الثقافة قد سبق لنا تحديده في الدروس السابقة وتفاديا للتكرار فقد أقرنا التكفل بمفهوم الشخصية فقط.

**1/-تحديد مفهوم الشخصية:**

من حيث الاشتقاق اللغوي، فإن تحديد مفهوم الشخصية يعود بنا إلى الرجوع إلى كلمة اللاتينية persona وتعني قناع الممثل على خشبة المسرح أي ذلك القناع الذي يستعيره الشخص ليعبر عن شخصية إنسان ما. وما يقوم به الممثل ما هو إلا دور من الأدوار التي يقوم بها تمثيلا لشخصيته.

- والشخصية عند علماء النفس لها جانبان: أحدها ذاتي والآخر موضوعي، فالجانب الذاتي هو الذي يعبر عن الفرد بقوله: (أنا)، مشيرا بذلك إلى حياته العقلية والعاطفية، والإدراكية، والإدارية، والجسمية، من حيث هي موحدة ومستمرة. ومعنى ذلك أن إدراك الذات ليس إدراكا أوليا، وإنما هو إدراك تدريثجي، وهذا ما يعرف بمراحل تكوّن الشخصية وهي:

**1/- مرحلة اللاتمايز:** وهي المرحلة التي لا يميز فيها الطفل بين جسمه والعالم الخارجي، وخاصة أمه.

**2/- مرحلة الأنا الجسمي:** وهي المرحلة التي يبدأ فيها بالشعور بأناه الجسمي وبأنه منفصل كذات عن العالم الخارجي ويبدأ هذا الشعور عندما يمتلك القدرة في التأثير في الأشياء الخارجية كمسك الأشياء وتكسيرها.

**3/- مرحلة الأنا النفسي:** وهي المرحلة التي يبدأ فيها الطفل بتكوين بعض إنجازات الشعورية كامتلاك الأشياء والشعور بالغيرة والحسد وخاصة عند التعارض مع إخوته حول شيء ما كاللعب والدمى.

**4/- مرحلة الأنا الاجتماعي:** وهي المرحلة التي يتشكل فيها أناه الاجتماعي باحتكاكه مع الأسرة والمدرسة والمجتمع (الشارع). وهنا تبدأ مرحلة التقليد واكتساب اللغة، التي بفضلها يتمكن من التواصل مع أفراد المجتمع.

انطلاقا من هذا التحديد لهذه المراحل فإن الطفل لا يشعر بشخصيته شعورًا واضحا ولا يعرف أنه مستقل عن العالم الخارجي، إلا أنه متى كبر في السن فرق بين جسده والأشياء الأخرى ثم فرق بين جسده ونفسه، ولا يزال المرء يجرد نفسه من المواقف الخارجية حتى يصبح ذاتنا مستقلة متصفة بالوحدة، والهوس والفاعلية والتلقائية.

- أما الجانب الموضوعي، فيتألف من مجموع ردود الفعل النفسية والاجتماعية التي يُواجه بها الفرد بيئته، أو من أنماط السلوك التي تعينه على تكييف نفسه وفقا لبيئته الطبيعية والاجتماعية.

- وأما من حيث الاصطلاح: فقد تعددت تعاريفها نظرا لتعدد النظريات واختلافها ويعود الاختلاف والتعدد إلى مفهومها المعقد.

"فالشخصية تشمل جميع الصفات الجسمانية والعقلية والخلقية في حالة تفاعلها مع بعضها من ناحية وتفاعلها مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ممن ناحية ثانية وتفاعلها مع المواقف اللانهائية العدد التي يختبرها الفرد منذ الولادة حتى الممات من ناحية ثالثة"

وقد يكون السبب في ذلك إلى كون مفهوم الشخصية مفهوم معقد تتداخل فيه جملة من العلوم، كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم الوراثة وعلم الحياة، ومما لا شك فيه أن كل فريق من هؤلاء العلماء يتحيز لميدان تخصصه، مما يجعل من مفهوم الشخصية يستطيع بهذه المواقف العلمية. ولذلك يتطلب منا تقديم جملة التعريفات التي تحدد لنا أهم الاتجاهات الفكرية التي تعرضت للشخصية ومنها:

التعريف الذي قدمه رالف لينتون بأنها: "المجموعة المتكاملة من صفات الفرد العقلية والنفسية، أي المجموع الإجمالي لقدرات الفرد العقلية وإحساساته ومعتقداته وعاداته واستجاباته العاطفية المشروطة"

- وعرفها فيكتور بارنو بأنها: "تنظيم ثابت لدرجة ما" للقوى الداخلية للفرد وترتبط تلك القوى بكل مركب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشيء، والخاصة بالإدراك الحسّي، والتي تفسر إلى حد ما ثبات السلوك الفردي"

ومن تعريفات الشخصية ما تقدمت به المدرسة السلوكية مع عالم النفس واطسن الذي عرفها على أنها: "مجموع الأنشطة التي يمكن اكتشافها عن طريق الملاحظة الواقعية لفترة طويلة تسمح بتوفير مادة لا يمكن الاعتماد عليها"

وإلى جانب هذه التعاريف نقدم التعريف الذي جاء به عالم النفس يوسف مراد للشخصية حيث اعتبرها:

"الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك فرد ما يشعر بتميز عن الغير، وليست هي مجرد مجموعة من الصفات، وإنما تشمل في الآن نفسه ما يجمعها وهو الذات الشاعرة، وكل صفة مهما كانت ثانوية تعبر إلى حد ما عن الشخصية بأكملها"

وأخيرا تعريف عالمي الاجتماع أوجبورت ونيمكوف، اللذان حدداها على أنها التكامل النفسي والاجتماعي للسلوك ضد الإنسان، وتعبر عادات الفعل والشعور والاتجاهات والآراء عن هذا التكامل".

بالاطلاع على هذه التعاريف وتفحصها يتضح لنا أن سبب هذا الاختلاف في التعريف يعود إلى تخير كل فريق من هؤلاء العلماء إلى تخصصاتهم، فعلماء النفس مثلا يركزون على التمايزات الفردية في الشخصية إلى جانب الجوانب الوراثية باعتبارها عامة يشترك فيها سائر البشر.

أما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا نجدهم يركزون على الشخصية السوية في المجتمع، ويكون أكبر اهتمامهم منصبا على الأسلوب العام الذي يتشابه فيه أعضاء الجماعة الواحدة.

- وانطلاقا من هذه التعاريف يمكن القول أن الشخصية هي مجموعة من الصفات (الخصائص) التي تميز فردا/ إنسانا بذاته عن غيره في البيئة الجسدية العامة، وفي الذكاء والطبع والسلوك العام.

فالجانب الفيزيولوجي لدى الإنسان يرتبط بالسلوك الصادر عن الإنسان وتتعدل هذه الأفعال عن طريق ما يتم اكتسابه من تجارب وخبرات.

وبذلك تكون الشخصية تمثل ذلك الكل المتكامل من الصفات الجسمانية والسيكولوجية وطريقة التفكير إلى جانب ما يتم تعلمه وكل ما يندرج في محتوى السلوك مما في ذلك العمليات العقلية.

- ومن المفارقات التي تميز الشخصية الفرد كونها وحيدة متفردة في صفاتها وخصائصها من جهة، ومن جهة أخرى اشتراكها مع الآخرين من أبناء جنسها.

فالشخصية تمثل بعض الثبات في سلوكها ومواقفها وفي مقابل ذلك تعرضها للتغير والتصور لأنها حاصل تفاعل العوامل الوراثية و الاكتسابية وتعقيبا على ذلك فإن كل شخص يُمثل نمطا فريدا من نوعه بحيث لا يشبه أبدً ا، ولذلك فمهما تعددت الشخصيات فلا يمكن القول بوجود تطابق بين شخصيتين أو أكثر لأن أي إنسان مهما كان له مكوناته الجسدية الخاصة وله طريقته في التفكير وأسلوبه في الشعور والإدراك والسلوك. مما يجعله يسلك سلوكا مميزا ومختلفا عن الآخرين.

وفي الوقت نفسه قد يشبه الآخرين في السمات الوراثية المشتركة وفي بيئة العيش المشترك، وفي الثقافة التي ينتمون إليها.

- ومن خلال هذه التعاريف المختلفة يمكن القول أن الشخصية هي مصطلح يدل على ذلك التنظيم الدينامي المكون من العوامل والصفات التي تميز الفرد وتحدد أسلوب تعامله مع البيئة. أو هي وحدة متكاملة من الصفات والمميزات الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التي تبدو في التعامل الاجتماعي للفرد والتي تميزه عن غيره تمييزا واضحا، بمعنى أن الشخصية تشمل دوافع الفرد وعواطفه وانفعالاته وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته أو بقول مختصر سمات الفرد جميعا. وبتعبير آخر يمكن الوصول إلى تعريف يشمل معظم الجوانب التي تناولتها التعريفات السابقة وهو أن "الشخصية عبارة عن التفاعل المتكامل للخصائص الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تميز الشخص وتجعل منه نمطا فريدا في سلوكه ومكوناته النفسية، وبكلمة موجزة هي: المجموع الكلي لاستعدادات الفرد العضوية الداخلية وميوله ونزعاته وشهواته وغرائزه التي تحدد ما يمتاز بها من سلوك وأفكار.

إن الشيء الذي يميز هذا التعريف محاولته التوفيق بين مجمل التعاريف السابقة ذلك أن الخصائص الجسمية والعقلية، الوراثية والمكتسبة تتفاعل مع بعضها في فرد واحد إلا أن هذا التفاعل يختلف من فرد إلى آخر مما يخلق نمط مختلفا من الشخصية يستحيل تطابقه مع الأنماط الأخرى من الشخصية.

والحكم على شخصية فرد ما إنما يتم من خلال الحكم على سلوكه وتحديد شخصيته أي فرد يتطلب التعرف على مظاهر سلوكه الدائم وتاريخ ذلك الشخص والأهداف التي يسعى للتوصل إليها وعلى المشاكل والخبرات الحياتية التي تواجهه والسياق الحضاري للمجتمع الذي يعيش فيه.

وهنا يطرح مفهوم من المفاهيم الأساسية للشخصية وهي ما تعرف بتكامل الشخصية.

**- تكامل الشخصية:** ما المقصود بتكامل الشخصية**؟**

يقصد بتكامل الشخصية حصول ذلك التوازن والانتظام والانسجام بين مكونات الشخصية.والتي يعبّر عنها بالجوانب الوراثية والمكتسبة أي يدخل في ذلك جملة الجوانب البيولوجية والوجدانية، والعقلية واللغوية والاجتماعية بحيث يسمح بضمان وحدة الشخصية.

إذ يعتبر التكامل شرط أساسي ضروري في الصحة النفسية، وأي خلل أو أي اضطراب في مكوناتها يؤدي إلى اضطرابها.

**2/- علاقة الثقافة بالشخصية:**

كل سلوك يصدر من الفرد يعود في بعض جوانبه إلى العوامل الثقافية والاجتماعية والحكم على شخصيته بالسواء أو الانحراف يتم من خلال الحكم على سلوكها. فإذا كان هذا السلوك يتماشى مع معايير الجماعة فإنه تحكم عليها بأنها شخصية عادية وإذا خرجت وخالفت هذه المعايير حكم عليها بالشذوذ. فعندما نقول عن شخصية ما بأنها عادية "Normale" فذلك لأن مصطلح عادي "Normale" مشتقة من كلمة "Norme" ويقصد بها المعيار.

.بمعنى أن الشخصية التي يتماشى سلوكها مع المعايير الاجتماعية وهي المعايير التي ارتضتها الجماعة تعتبر سويّة تخرج عن هذه المعايير تعد منحرفة.

- بالرغم من الاختلاف القائم بين مفهومي الثقافة والشخصية، إلا أن العلاقة بينهما تبقى ضرورية، فبدون الثقافة لا توجد الشخصية وبدون هذه الأخيرة لا توجد ثقافة، وشخصية الفرد لا يمكنها أن تنمو إلا داخل وسط ثقافي، ولا يمكن لهذا الوسط الثقافي أن ينمو ويزدهر إلا من خلال شخصيات هذا المجتمع.

- إن الوسط الثقافي هو التربة الخصبة التي تهيئ للشخص ما يمكنه تعلمه ويطلق الأنثروبولوجيون على هذه العملية بالتنشئة الثقافية ويقصد بها اكتساب المهارات والعادات الفردية وأنماط السلوك والمعايير والقيم والفوائد الاجتماعية أما علماء الاجتماع فيطلقون عليها مصطلح التنشئة الاجتماعية، مركزين في ذلك على تكلم أنماط السلوك الاجتماعي المناسبة لمجتمع نعين، وكلا العمليتين يعتبران شكلان من أشكال التربية.

والتربية عند علماء الأنثروبولوجيا تتضمن أنواع التعالم الرسمي وغير الرسمي والي يؤدي إلى اكتساب الفرد للثقافة وتكوين شخصيته وتعلمه لقدرة أن يكيف نفسه مع الحياة كعضو في المجتمع.

- والثقافة أثرها الواضح على شخصية الفرد، ذلك أن شخصية الجزائري تختلف عن شخصية الفرنسي والأمريكي والأسترالي. والشخصية لا يمكن أن تفهم إلا في إطارها الثقافي الذي عاشت فيه، لأن الاختلاف في الشخصيات مراده إلى الاختلاف الثقافي وداخل الثقافة الواحدة قد يتحقق الاختلاف فأهل العلم والأدب يختلفون عن أهل الفن وأهل الموسيقى.

- تؤكد الدراسات العلمية أن أكثر العوامل فاعلية في تشابه شخصيات جماعة ما يعود إلى انتماؤهم إلى ثقافة مشتركة. وهذا الانتماء للثقافة الواحدة قد يجعلنا نتنبأ بسلوكاتهم في مواقف محددة وقد يعود هذا إلى التوافق مع الجماعة.

وشخصية الأفراد هي منتوج الثقافة التي نشأوا فيها وترعرعوا وأكثر دقة من ذلك، المؤسسات التي يكون الفرد في احتكاك دائم طيلة تكوينه والتي تمنحه نمط تجهيزي ينتهي بخلق نمط معين من الشخصية.

- ويتباين تأثير العوامل الثقافية في شخصية الفرد تبعا لثرائها وفقرها أو مرونتها وانعزالها، فالثقافة المرنة المنفتحة لا شك أنها تؤثر بصورة أكثر في شخصية الفرد من الثقافة المنعزلة أو المنغلقة وهذا ما تؤكده الدراسات العديدة على أن نوع الثقافة وطبيعة العلاقات القائمة في الأسرة قد تؤثر سلبا أو إيجابا في تهيئة الأفراد.

**أ/- أثر الثقافة في الشخصية:** من مفارقات الشخصية

- إذا انتقلنا من المقولة التالية:

أن الفرد من جهة معينة لا يشبه أحدا من الأفراد ويشبه من جهة أخرى بعضهم.

لأمكننا القول أن هذا الرأي يبدو ظاهريا فيه من التناقض الصارخ الذي لا يقبله أي عقل راجح ولكن التعمق فيه يظهر لنا أنه بديهي ولا يخفى أدنى تعارض، بل فيه تكامل بنيهما.

فكل فرد ينفرد بشخصيته مميزة وفريدة من نوعها تجعله يختلف عن أي شخص آخر في حالة التوائم لا يمكن القول بوجود فردان متشابهان كما في السمات الجسمية والنفسية، ولكن الفرد قد يشترك مع أعضاء جماعته الحاملين لنفس الثقافة في بعض السمات النفسية.

إلا أن هذا لا يمنع من وجود اختلافات فردية بين أعضاء المجتمع الواحد.

ويتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن "العناصر المشتركة في شخصيات أعضاء المجتمع الواحد تكوّن معا صيغة متكاملة ينمكن أن تسمى "الشكل الرئيسي للشهية" حيث تمد تلك الصيغة الكلية أفراد المجتمع الواحد بالمفاهيم العامة والقيم التي تجعل في الإمكان حدوث استجابة عاطفية موحدة لأعضاء المجتمع نحو مواقف تتضمن قيمهم العامة المشتركة"

وهذه الأخيرة هي التي تمد أفراد المجتمع بالمفاهيم العامة حيث تتوحد تبعًا لذلك استجاباتهم أمام موقف من المواقف.

- هذا ما دفع من رالف إلى اعتبار ثقافة مجتمع من المجتمعات بأنها تحدد من دون شك الطبقات العميقة من شهية أعضائها عن طريق التقنيات النوعية في التربية التي يخضع له الأطفال لكن مفعولها لا يقف عند هذا الحد، بل أنه يستمر في تشكيل بقية الشخصية بتقديمها للفرد نماذج من الاستجابة النوعية"

مما يعني أن المجتمع هو المسؤول الأول عن تحديد وصنع الشخصية القاعدية ويقصد بها جملة الصفات التي يتلقاها الأطفال في صغرهم عن طريق التربية والتي يبقى تأثيرها فيهم حتى عندما يتقدم بهم العمر. وقد أثبتت الدراسات عن وجود علاقة وطيدة بين أنماط الثقافة وشخصيات الكبار. فقد "لوحظ أن في المجتمعات التي يسود فيها نمط ثقافي يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما، تتسم شخصيات البالغين الأسوياء بالخضوع وعدم الخلق، هذا بالرغم أن هؤلاء الأفراد يكونون قد نسوا تماما خبرات الطفولة التي أدت إلى تكوين تلك الاتجاهات العامة"

وعلى هذا الأساس فإن تأثير الثقافة على الشخصية لا يقتصر على فترة الطفولة بل قد تمتد تلك العملية طوال مراحل الحياة الفرد.

- وقد كشف وصف رالف لنتون لقبيلة "التنالا" النقاب عن جانب مهم آخر من جوانب التركيب الأساسي للشخصية، تبين أن التغيرات الاجتماعية والثقافية الجديدة خلقت ارتباكا كبيرا بينما ظل تركيب الشخصية الأساسية سليما وثابتا.

فالحياة الاقتصادية في مجتمع التنالا القديم كانت قائمة على زراعة الأرز دون اللجوء إلى نظام خاص للري وقد أدت هذه الظاهرة إلى إيجاد نظام اجتماعي قائم على الملكية الجماعية للأرض وعلى توزيع المنتوج على كل أفراد العائلة بالتساوي وذلك تحت إشراف الأب الذي كان يتمتع بالسلطة المطلقة تحت ما يعرف بالنظام الأبوي.

ولكن حينما تم إدخال تقنية نظام الرّي بالطرق الحديثة اضطر الكثير إلى التخلي عن الملكية الجماعية للأرض، وسرعان ما أدى هذا الوضع إلى شعور الأفراد بالخطر نتيجة التنافس بين الأفراد على إنتاج هذه المادة، الأمر الذي تسبب في انهيار التنظيم العائلي وازدياد الجرائم والأمراض الهستيرية والانحرافات الجنسية والسحر والشعوذة. وبالتالي فإن ما يمكن استنتاجه أن الشخصية فإن ما يمكن استنتاجه أن الشخصية بعد تكيفنا مع نظام اقتصادي قديم جعلها تجابه متاعب وصعوبات مرهقة ولم تكن مهيأة لها.

هذه الأمثلة تبين لنا التوافق بين المؤسسات وبين الخبرات الأساسية للفرد أو ما تعرف بالشخصية القاعدية، خلال عملية النمو التي يمرّ بها الشخص. وفي الحالة التي يستمد فيها مجتمع ما بعض النماذج من ثقافة أجنبية فإنها على العموم تحول ويعاد تشكيلها حتى تنسجم مع نمط الشخصية القاعدية لدى المستمدين، فالثقافة بإمكانها أن تجبر الفرد الشاذ على قبول أشكال من السلوك التي ينفر منها لكن عندما ينفر هذا السلوك من المجتمع كله، فإن على الثقافة أن تطيع.

وهذا ما يؤكد صلة التكامل بين الثقافة والشخصية

ففي حالة الاستعارة الثقافية غالبا ما يتم التعديل في هذه الأخيرة حتى تنسجم والشخصية القاعدية للمجتمع، والحق أن الثقافة قد تلزم أفرادها في بعض الحالات بإتباع أنماط السلوكية المكروهة والمنبوذة من قبلهم ولكن يتم الإجماع من الجديد على رفض سلوك ما. فإن الثقافة يتحتم عليها الانصياع والخضوع. ومثال ذلك عقوبة الإعدام حينما رفضت في بعض المجتمعات من قبل أفرادها تم استبدالها بعقوبة السجن المؤبد.

ما نخلص إليه: أن الثقافة الدور التام في تحديد الشكل الرئيسي للشخصية في أي مجتمع من المجتمعات، وأن الاختلاف في الثقافات يؤدي حتما إلى الاختلاف في الشخصيات كما أن هذا لا يمنع من وجود قاسما مشتركا بين أفراد المجتمع الواحد يدعى بالشخصية القاعدية، وهذه مفارقة من مفارقات الثقافة والشخصية.

ولذلك يحق لنا التساؤل:

إذا كان الاعتقاد القائم بوجود "الشخصية القاعدية" فكيف يمكننا أن نوفق لبنها وبين الفكرة القائلة بأن جميع الأفراد في مجتمع ما متباينون أو مختلفون.

- هذا ما سنسعى إلى الإجابة عنه من خلال هذا العنصر:

**ب/ تأثير الشخصية في الثقافة:**

يحصر تأثير الشخصية في الثقافة في قدرة الأشخاص الخارقة من خلال ما يقدمونه من إبداعات وابتكارات، ولذلك نجد والاس في هذا الصدد "إذا ما أوردنا فهم عمليات تكوين الشخصية فهما كاملا، فمن الضروري ألا نقتصر على فهم الثقافة فحسب وإنما لابد أن نكون على دراية أيضا بالعمليات السيكولوجية التي تعتمل في نفس الفرد والتي من خلاله يعدل الموقف الثقافي من سلوكه ويغيره"

- ويتمثل أثر الشخصية في الثقافة ف دراسة عملية التجديد والاختراع، حيث تعتبر هذه الأخيرة العامل الأساسي المؤثر في الثقافة ولذلك وجدت نظريات عدة حاولت شرح هذه العملية الإبداعية ومن هذه النظريات التي تناولت الاختراع والتجديد، نظرية العلامة وكذلك نظرية التنظيم الأقصى مع العلامة والاس.

يذهب بارنت إلى تحديد مفهوم التجديد على أنه "عملية عقلية يتم فيها إعادة تركيب لاثنين أو أكثر من الصيغ الكلية العقلية، وفيما يقوم المجد

د بثلاث عمليات عقلية هي:

1- أن يحلل بعض الصيغ الكلية العقلية، وأن يحلل كل صيغة منها لتمييز العناصر المكونة لها، والعلاقات التي توجد بين تلك العناصر بعضها البعض.

2- مقارنة تلك العناصر مع بعضها البعض لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف بينها.

3- إعادة الربط بين عناصر الصيغ الكلية مع تغيير بعض العناصر مكان أخرى ثم إحداث تغييرات في العلاقات التي تربط بين تلك العناصر.

ولهذا فإذا ما حاولنا إسقاط هذه النظرية على أي ظاهرة أخرى، ولتكن ظاهرة التغير الثقافي، يمكننا النظر إلى كل تغيير على أنه ربط الصيغ الكلية الموجودة من قبل، أي المقصود بها نقطة الابتداء حتى يتمكن الفرد من إعادة صياغتها للوصول إلى صياغة كليّة جديدة.

إلا أن العلامة والاس يقدم نقدا لنظرية بارنت مشيرًا إلى أنها تناسب الشروط التي تعمل على إحداث عملية التجديد والتنبؤ بالارتباطات التي قد تحدث وبالأشخاص الذين سيقومون بها والزمن الذي يمكن أن تحدث فيه.

- لهذه الأسباب يرفض والاس نظرية بارنت في التغير الثقافي

ويقترح بديلا وهو نظرية التنظيم الأقصى والتي تقوم على فرضية أن كل كائن في أفعاله يسعى إلى تحقيق الحد الأقصى في إطار الشروط الموجودة وفي حدود قدرته لكمية التنظيم في النظام الدينامي الذي يصطلح عليه "بتصور الفرد لذاته وللعالم الخارجي".

وأن الحد الأقصى في رأي العلامة والاس هو الذي يسمح بإمكانية حدوث تجديدات من عناصر وعلاقات غير موجودة من قبل. ويشترط في ذلك توفر الشروط اللازمة لعملية التجديد.

وإذا نظرنا إلى العوامل النفسية للمجددين وبالضبط الحوافز المساعدة على ذلك،فإن نظرية إعادة الربط مع بارنت ونظرية الحد الأقصى مع والاس تفترضان أن التجديد لا يتم إلا في حدود ما تمده به الثقافة والموقف المحلي ممثلا في قبول المجتمع أو عدم قبوله للتجديد بالإضافة إلى القدرات الفردية. ولا يتم التجديد عن طريق الصدفة أو الخطأ المعرفي.

- إضافة إلى ذلك فإنه لا يمكن حصر أثر الثقافة في الشخصية في عملية التجديد فقط، وإنما يتعلق الأمر كذلك بدراسة استجابات الجماعات للتجديد،سواء كان بالقبول أو الرفض، ولهذا نجد علماء الأنثروبولوجيا النفسية يهتمون بدراسة العمليات النفسية التي ترتبط بهذا التجديد المقترح من حيث قبوله أو رفضه، سواء من المجتمع أو من المجدد نفسه، ومن الأمور التي يهتم بها كذلك هؤلاء العلماء، حالات الانتشار والامتزاج الثقافيان ورد فعل المجتمعات المستقبلة لمثل هذه الظواهر الجديدة عليهم.

و أخيرا يمكن القول أن علاقة التأثير و التأثر متبادلة بحيث لا يمكن استغناء أحدها عن الآخر.فلإنسان تتجاذبه حتميات كثيرة منها ما هو ذو طبيعة وراثية منها ما هو خارجي كالحتميات الجغرافية و الاجتماعية و الثقافية قد يحدث أن يقع تعارض بينها . و لذلك فان الشخص يسعى إلى الابتعاد عن التناقض و الاقتراب من كل ما يحقق له الشعور بالوحدة و الانسجام.

1. [↑](#footnote-ref-2)
2. [↑](#footnote-ref-3)
3. [↑](#footnote-ref-4)